الجـزء الأول

نصف القاعدة فى الارتفاع

(١) السقوط النبيل
(٢) هيا بنا يا أستاذ
(٣) مصرى غير مقهور.. مصرى غير موجود
(٤) لا يكفى أن تشاهده من بعيد .. اذهب إليه
(٥) المثقف الذى يتخلى عن عقله لينجو بطعامه
(٦) البكاء فوق المقاعد الحزينة
(٧) الروح التائهة فينا
(٨) إن قلت كلمتك لا تمض
(٩) الراقصون الجياع فوق سلم الحيرة

obeikandi.com

obeikandl.com

(١)

السقوط النبيل

قلت عنه إنه صاحب قلب شاب رفرف على جلساتنا كما يرفرف الطائر الجسور الباحث عن محط مريح فى عالمٍ فقد راحته . . وقالوا لى إنه عندما قرأ كلمتى عنه فى المجلة هز رأسه بامتنان وأسى . . وقد فهمت على الفور ما هو سر الامتنان . . وما هو سبب الأسى . . فالرجل الذى يلج الشيخوخة كثيرًا ما يسعده القول بأنه ما زال يقتنى قلبًا شابًا ويداخله الامتنان لهذا الوصف . . ولكنه عندما يقف فى مواجهة نفسه بالمصارحة الخالية من التجمل وإسباغ الأوصاف المريحة يتذكر فى أسى أن قلبه ـ ذلك الشاب كما يقولون ـ ما حاز هذا الثناء إلا تلطيفًا لواقع عمره الأليم . . وهنا يتذكر كيف مر به عمره هكذا سريعًا، وانساب من بين أصابعه كما تنساب الرمال الناعمة . . ثم يعاود النظر إلى ما بين يديه من حصاد، ويكتشف أنه لا يكاد يرى إلا هشيمًا يقلبه بين كفيه . . ثم يتساءل : كيف يرى الآخرون حصادى؟ . .

لعله ارتاح لما أسبغته عليه من وصف : «الطائر الجسور الباحث عن محط مريح فى عالم فقد راحته . . » ولعله وجد ضالته فى هذا الوصف . . فهو بالفعل لا يعدو أن يكون إلا طائرًا جسورًا . . وقد كان يكفيه أن يكون طائرًا وكفى، ولكنه وجد نفسه يمتلك جسارة الابتعاد عن الوقوف فوق الأشجار الذليلة التى تقف عليها كل الطيور . . أو الأشجار المتاحة لممارسة غواية الوقوف والنوم . . فلقد دفعته جسارته أن يندفع بعيدًا عن الأسراب المغيّبة بحثا عن أشجاره الخاصة . . أشجاره العالية . . فهذا هو المحط الذى يريحه . . ولكنه عندما وجد نسورًا أخرى قد اعتلت تلك القمم راح

يواصل الطيران والبحث عن قمته متسائلاً: «من لى بتلك القمة التى لن أرتضى سواها والنسور الكواسر تتكالب عليها وتحتلها وتدافع عن مكانها فوق ذراها؟» . .

ولشد ما يأخذه الأسى وهو يحوم باحثًا عن مكانه المرموق؛ ليدعو إليه قومه الذين يجدهم هناك قد أغفوا واكتفوا بتلك الفروع الوطيئة . .

لقد غاب طويلاً فى بحثه . . وغاب طويلاً فى طيرانه . . وبقدر ما عز عليه العمر الذى يضيع فى البحث . . عز عليه ألا يجد محطه المأمول . .

قال لنا وهو يلقى براحته اليمنى لترقد فى استسلام فوق مؤلَّفه الضخم: لقد غبت عنكم خمسة عشر عامًا هى السنوات التى غرقت فيها بين آلاف المراجع التاريخية لكى أعود لكم بردٍّ عادل عن سؤال قلق هو: من نحن؟ . .

لمحنا فى عينيه الإرهاق البادى، وتأكد لنا أنه لا يتمتع مثلنا ببعض الاتساع فى العيون بعدما تحورت عيناه شرطتين اختفى بياضهما . . ولعلنا ربطنا بين ذلك التحول فى خلقة العين وبين آلاف المراجع البحثية التى امتصت سطورها نقاءً كان ـ ولا شك ـ موفوراً فى هاتين العينين . . وكنا نحن عشاق الفكر والأدب الذين نجتمع به وحوله قد داخلنا شعور نحوه بالحب يوازيه شعور آخر بالغيرة لأن كلاًّ منا كان يتمنى ـ فى قرارة نفسه ـ أن يمتلك قدرة هذا الرجل فى تسييس النفس والقسوة عليها وتجنيدها فى تحقيق هدف ما ـ أيًا كان هذا الهدف ـ أيًا كان ما سيصرفه عليه من جهد وانكباب على السهر والقراءة وانصراف عن الدنيا وما فيها من لهو ولعب وترفيه . .

كنت أجلس بجواره مما أتاح لى أن أستمع إلى رجْع أنفاسه اللاهثة والمتعبة . . فالتدخين ـ تلك العادة التى واكبت عادته الليلية فى الانصراف إلى القراءة ـ راحت آثاره تعلن عنَ نفسها فى لهاث واضح وفى التقاط عفوى وروتينى لسيجارة تصل من صندوقها إلى فمه وتشتعل فى ثوان دون وعى . . واكتشفنا أن أحمد منصور قد وقع مثلنا ـ نحن الشعراء ـ تحت طائلة الدهشة . . عندما راح يسطر قصيدته/ الكتاب طوال خمسة عشر عامًا . . واكتشفنا أن دهشته كانت هى نفسها الدهشة البريئة التى جذبت نيوتن ليبحث عن سر سقوط التفاحة ـ من شجرتها ـ إلى أسفل . . وقد كانت دهشة أحمد منصور التى جذبته هى أن يضع إجابة عن سر سقوط الأمة العربية والأمة الإسلامية ـ من ذروة حضارتها . . إلى أسفل . .

ورحنا ننتظر الإجابة التى سيدلى بها أحمد منصور عن سر سقوط أمتنا عندما لاحت فى خيالنا إجابة نيوتن العبقرية عن سر سقوط التفاحة، والتى تضمنت اكتشافًا خالدًا هو الجاذبية الأرضية . .

لقد تنحنح أحمد منصور وقال: بالنسبة لنا فالسقوط كان سببه: الجاذبية السماوية . .

وكأنه كان يتوقع تلك الهمهمة التى صدرت من كل الحضور فتوقف عن توضيحاته الصادمة حتى تتوقف الهمهمة . . وما أن ران الهدوء على المجلس حتى واصل توضيحه الصادم ـ على حد تعبيره ـ:

ـ ومن قال لكم إننا كنا ثمارًا كالتفاح فوق شجرة اسمها الحضارة العربية أو الإسلامية؟ . . لم يحدث فى التاريخ أن كنا تفاحًا . . لأنه لم يحدث أن كان هناك شجر ليحمل هذا التفاح . .

سأله أحدنا:

ـ إذن فنحن لم نسقط . . ما دامت لا شجرة هناك . . ولا تفاح . .

رد مسرعًا:

ـ تستطيع أن تقول ذلك . . فالسقوط هو أن تنحدر من مرتفع . . ولم يحدث ذات تاريخ أن كنا فى ارتفاع .

سأله آخر:

ـ ألم تواتك مراجعك بشىء عن الحضارة الإسلامية؟ . .

ـ والله يا أخى لقد واتتنى بالكثير عن الفتوحات الإسلامية التى لا شأن لك بها أيها القبطى . . لقد كنت أنت واحدًا من هذه الفتوحات . . فكيف تفخر بالغازى أيها المغزو؟ . .

تابعه أحدنا بهذا الرأى:

ـ لقد انصهر الضيف والمضيف وأصبحا شخصًا واحدًا . .

فأجاب أحمد منصور مستنكرًا :

ـ ومن قال إن الضيف هو الذى يحكم المضيف ويوجهه ويسلب منه كيانه القديم ليدخله رغم أنفه فى كينونة جديدة؟ . .

باغته سؤال متنمر :

ـ إذن، لم يكن لائقًا بالمصريين أن يدخلوا فى الإسلام؟ . .

وكان رده جاهزًا :

ـ الإسلام دين أطاحت قوته بكل الأديان القديمة فى وادى النيل . . ولكنك لم تتمكن من استغلال سماحته فى إعلاء حضارتك المصرية . .

قال أحدنا مستنكرًا :

ـ حضارة المعابد الجنائزية والتماثيل والأهرامات والمدافن . .

رد بهدوء :

ـ لعلك لا تجد ما تفخر به من ماضيك سواها الآن . . وهى ليست كما تقول حضارة الحجارة . . ولكنها حضارة العلم والفن والفلك والعمارة . . حضارة العجائب . .

عاد صاحب السؤال المتنمر :

ـ إذن، فأنت تعترف الآن أننا كنا ذوى حضارة . .

رد بنفس الهدوء :

ـ أجل . . الحضارة المصرية فى وادى النيل . . لقد توقفت وتعطلت مسيرتها بفعل الغزاة . .

صاح أحدنا :

ـ ومن عطلها؟ . لقد سافَرت حتى التحمت نهاياتها ببداية الحضارة الإسلامية . .

صمت قليلاً ثم راح يوضح :

ـ لو اتفقنا على تعريف الحضارة لارتاحت نفوسنا . . هل جاء عمرو بن العاص إلى مصر بمشروع حضارى مدنى جاهز؟ . . أم جاء بدعوة دينية يأمر فيها الناس بواسطة رسوله محمد ـ عليه السلام ـ بتوحيد الله والعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى والنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى؟ . . ما علاقة هذه الدعوة الربانية بمشروع الزراعة على ضفاف النيل؟ . . هل تطورت الزراعة على يد عمرو بن العاص وهو القادم من البادية؟ . . التاريخ يقول إنها تأخرت إلى حدٍّ مزعج . . وهل تطورت ذائقة الادخار لدى المصريين؟ . . التاريخ يقول إنها انعدمت وهى التى ارتبطت فى نفوس المصريين بفيضان النيل وتحاريقه . . حتى فكرة الجندية التى كانت متألقة فى الحاضنة الثقافية لدى المصرى القديم كما تشى بذلك جدارياتهم استطاع أن يلمحها الرسول محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويوصى بالجنود المصريين خيرًا «لأنهم خير أجناد الأرض» . . ومع هذا فلم تؤخذ بوصية الرسول . . وضاعت فكرة الجندية هى الأخرى مع الزراعة والادخار . .

ـ إذن، فأنت تنعى الحضارة المصرية . .

ـ أنا لا أنعاها . . ولكنى أبحث عنها . . إنها جثة أوزوريس التى تبعثرت فى الوديان . . ونحن إيزيس الباكية . .

ـ ولا تريدنا أن نتمسح بحضارة الإسلام؟ . .

ـ للمرء ألا يفخر إلا بما قدمه . . وعباقرة الإسلام ليسوا كلهم مصريين . . الغرب الذى أخذ منهم أفكارهم وطورها يذكرهم بأسمائهم . . وكانوا جميعًا من بقاع غير مصرية . .

ـ هل هذا ما قدمته فى كتابك؟ . .

ـ أهم ما قدمته فى كتابى هو تأريخ القهر الذى تجرعه المصريون على امتداد حياتهم . . القهر فى الداخل من حكامهم . . والقهر المحمول لهم فوق جياد الغزاة .

ثم وقف أحمد منصور متهيئًا للانصراف . . وراح يرنو إلى الحضور بنظرة خابية . . بها قلق . . ونبل . . وتوتر . . وحنان . . وبصوت حانٍ راح يتدفق فى دفء وألم :

ـ يا سادتى . . لقد أخذتنى الدهشة وأنا رفيق حسرتى فى سيناء عندما رأيت اليهود يطئون أجسادنا بأحذيتهم كالحشرات . . وشاهدت انكسار بريق الزمن فى عيون أبناء الفراعنة الذين استخدموا اليهود ـ ذات يوم ـ خُدّامًا لهم . . وعرفت أن الزمن يدور دورته ، وأننا فى طريقنا أن نتحول خدامًا لهم . . وأنهم لو كانوا قد سرقوا ذهب المصريين عند خروجهم فسوف يسلبوننا كرامتنا ونفوسنا وأرواحنا عند دخولهم . . واكتشفت أننا نضحك على أنفسنا بأغنيات المجد الزائفة . . وأننا لم نتعلم من التاريخ إلا الخضوع لقهر الحكام . . وقهر الغزاة . . وآه . . آه من قهر اليهود فيما لو غزوا ديار عقولنا . . ما بالك لو غزوا ديارنا؟ . . أعلم مقدمًا أن حديثى صادمٌ وقاس . . لأننا لم نتعود أن نقر بعيوبنا . . بل تعودنا أن نتهم ناصحنا بالكفر فيما لو قال لنا إن وقت المصنع والمعمل له قداسة وقت الصلاة وقداسة التعلق بالمساجد . . يا سادتى . . إننى والله مسلم يعتز بإسلامه . . وأواظب على الصلاة ، ولكنى دائمًا أتحاشى السقوط إلى أعلَى . . السقوط النبيل . .

* * *

(٢)

هيا بنا يا أستاذ

راق لى أن أراه عن قرب . . تمنيت أن تتاح لى فرصة مشاهدته فى قاعة المحكمة وهو يدافع عن أصحاب قضاياه كمحامٍ له سمعته الطيبة وتاريخه المشرف . .

وفى مكتبه الذى يعج بالموظفين وأصحاب القضايا وسُحُب دخان السجائر ـ التى تنبعث من غرفته فتنسحب إلى الصالة لتلحق بسحب مماثلة تنبعث من سجائر الموظفين الذين هم على دين ملكهم فى الاستمتاع المحبّب بأكواب الشاى ولفافات التبغ ـ قابلنى متهللاً وأسرع بإلقاء تعليماته إلى جمع من شباب المحامين أن يحملوا مسئوليتهم خلال تلك المدة التى سيتفرغ فيها لمجالستى . .

واجهته بسؤال مباغت :

- الأستاذ أحمد منصور المحامى . . ماذا تريد ؟ . .

أطرق لحظات طويلة . . كان يفكر فى الإجابة . . ولا أعتقد أنه كان يفكر فى الهروب من سؤال يحمل كل هذه البساطة . . وعندما رفع وجهه مصوبًا نظره إلىّ مدققًا فى ملامحى جاءنى صوته متحشرجًا :

ـ كنت فى الماضى أريد أشياء كثيرة . . أما الآن فيبدو أننى بعد كل هذا العناء سأنضم إلى موكب الحائرين . .

ـ ومن هم الحائرون؟ . .

ـ هم الذين بداخلهم إرادة مكبوتة . . إرادة لا لزوم لإطلاقها . .

ـ ولماذا لم تُسمهم : اليائسين . . ؟ . .

ـ هذا ما أطال تفكيرى فى سؤالك . . فاليائس هو الذى استسلم تمامًا . . أما الحائر فهو الذى يعانى من يقظة التوثب الذى فى داخله . . وغفوة التراخى الذى يحيطه . . فهو حائر بين أن يستجيب لما فى داخله وبين عدم جدوى ذلك إذا قدّمه للناس . .

ـ دعنى أصارحك بشىء لا بد أن تعرفه . .

ـ تفضل . .

ـ جئتك وفى جعبتى ما تيسر من معلومات جمعتها عنك . . أى أننى لا أجهلك تمام الجهل، وأنا أحاول الغوص فى أعماقك . .

ـ إذن، دعنى أنا الآخر أطلب منك شيئا . .

ـ تفضل . .

ـ فضولى يدفعنى الآن أن تُطلعنى على بعض ما عرفته عنى .

ـ سأوجز لك ذلك فى نقاط :

* أنفقت إرثك من أبيك بين جدران مكتبك ومكتبتك . .

* ثوريتك واقترابك من الخطوط الحمراء أدى إلى الزج بك فى السجن . .

* كانت أحلامك عريضة . . ومنها أن تقيم حزبًا . .

ابتسم فى إعزاز . . وهز رأسه موافقًا . .

ـ هذا كله صحيح . . ولكن هناك توضيح بسيط لمسألة إنفاقى لإرث أبى . . فالمكتبة لا يمكنها استهلاك كل هذا الإرث . . ولكنه المنزل والأولاد . . فمع انهماكى فى الاطلاع والبحث فى قضية مصر رفضت ولسنوات طويلة قبول أى قضية أخرى . . إذن، فمن أين لى بطعامى والأولاد سوى تجريد نفسى من لقب (مالِكْ) رويدًا رويدًا ببيع الأفدنة فدانًا فدانًا؟ . . هذا ما حدث . .

ـ إذن، فأعظم قضية أسندت إليك هى قضية مصر؟!

ـ وهى كما ترى قضية خاسرة . . لم أكسبها . . ولم أكسب منها . .

ـ هل بعد صدور كتابك (مصر . . الأم) تعتبر أن قضية الكتاب خاسرة . . ؟

ـ ربما يكون الكتاب نفسه هو الدليل على هذه الخسارة . . الكتاب الذى تتحدث عنه لم يكن سوى القاضى الذى استمع إلى دفوعى وحيثياتى، ثم أتى بحكمه القاطع فى مجمله . . فقد كنت أطارد سؤالاً حائرًا : من نحن . . ؟ وكانت الإجابة : أنتم . . لا شئ . .

ـ أنت محام . . لماذا اكتفيت بدور المحامى الباحث عن الحقيقة . . والباحث عن مخرج دون أن تتقمص دور الطبيب الباحث عن علاج ؟ . .

ـ لقد توصلت إلى هذا الحل . . وبحثت عن علاج لقضية مصر يبدأ من عندى وأنا الغارق فى دموعها . . ووجدته . . وجدت هذا الحل يلوح أمامى عندما أعلن السادات عن قيام المنابر تمهيدًا لقيام الأحزاب، وقررت أن أكوّن حزبًا يحمل أفكارى فى الإصلاح والخلاص . .

ـ وأين هذا الحزب؟ . .

ـ لم يولد . . ولن يولد . . لأن الأحزاب التى ظهرت لم تكن مولودة ولادة طبيعية . . ولكنها جاءت نتيجة اعتساف . . ولذا فهى كما تراها مواليد مشوهة لا تتردد فيها أنفاس الحياة . .

ـ ولذا فأنت اخترت أن تظل بحَمْلك؟ . .

ـ هذا أشرف . .

ـ ولكنه أخطر . . فالحَمْل الطويل يقتل الجنين . .

ـ إلا فى السياسة . . فالحمل الطويل يزيد المولود نضوجًا . . وإذا قدر له الخروج للحياة يزداد بهاءً . .

كانت عفوية الحوار تستدرجنا إلى الرمز . . وكان الرمز مفهومًا فيما بيننا دون سابق اتفاق . . فالمولود أو الجنين الذى نتحدث عنه لم يكن سوى الأفكار والمبادئ والقيم

التى من المؤكد ـ كما يشير الحوار ـ أنها تزداد نضوجًا لدى صاحبها مع طول انصهار تجربته داخل نفسه الذكية وروحه الوثابة . . وغالبًا ما يكون المناخ المضاد لهذه المبادئ عاملا مساعدًا على تألقها والإيمان الزائد بجدواها بل والرغبة فى سرعة تقديمها للناس كحلٍّ ودواء للأمراض الزاحفة . .

وسرعان ما انعطفنا إلى الطريق المكمل للحوار عندما تخلصنا ـ أيضا ـ دون سابق اتفاق من حالة الترميز التى راحت تتغلغل فى حواراتنا الوليدة . .

قلت له ضاحكًا : إذا كان مفهوم أن : خير البر عاجله يرطّب نفوس الخيّرين ويدعوهم إلى التعجل بإطلاق الصلاح ، فإنه فى حالتك ثبت أن التريث هو المطلوب . . وتلك سياسة لا تخلو من مشاكسة . .

زمّ شفتيه . . وراح يهز رأسه علامة على الموافقة وهو آخذ فى البحث عن رأيٍ شافٍ أو قول فى الصميم . . ثم ما لبث أن ابتسم وهو يطالعنى بوجهه . .

– يهيأ لى أنك الذى تنحو بى إلى فعْل المشاكسة . . فما دمت قد قلت لى إنك جئت لتجالسنى وفى جعبتك ما تيسر من مَعلومات عنى ـ إذن ـ فأنت تعلم أننى لم أتوقف عن مشروعى فى إقامة حزب إلا لسبب واحد . . هو عدم اقتناعى بإضافة حزب ما إلى مجموعة الأحزاب العقيمة التى تزيّن واجهة زائفة لكلمة زائفة اسمها الديمقراطية . . وإذا كنت تعتقد أننى أنتظر اللحظة المناسبة لإطلاق مشروعى ، وأننى أتريث حالما تتضح الأمور أو ينقشع الضباب فأنت واهم . . فلا الأمور ستتضح . . ولا الضباب سينقشع . .

ـ ولكنك ما زلت تحمل أفكارك وتطلقها بجسارة الشرفاء ونبل الأخيار . . ولم يبق لك سوى منبر ترتقيه لتخاطب الجموع الغفيرة . .

– هذا هو الوهم بعينه . . فلا مكان للشرفاء . . ولا حظ للأخيار . . ولن يُسمح لك بمنبرٍ ترتقيه . . ولن تجد فى هذه الجموع عقولا تفهمك . . أو آذانًا تسمعك . .

ـ دعك من الجموع الآن . . عليك بالمثقفين . .

ـ المثقفون فى ورطة . . ولعل الجموع لا يمرون بنفس هذه الورطة . . لأنهم لا

يحملون إلا همًا واحدًا . . هو هم بطونهم . . أما المثقف الذى لا يجب ألا يحمل سوى هم عقله أصابه هو الآخر هم الجموع . . فأصبح يحمل همّين : عقله وبطنه . .

ـ ذكرت لى من قبل أنك انخرطت فى موكب الحائرين . . وها نحن نكتشف موكبًا آخر : موكب المهمومين . .

ـ إنه أشد المواكب بؤسًا . . وأشدها خطرًا . . فقد اصطفت فيه كل الرءوس . . الرءوس التى تحمل الألم . . والرءوس التى تحمل الأمل . . لم يخرج عن هذا الطابور البائس إلا الصفوة . .

ـ ومن هم الصفوة؟ . .

ـ الصفوة هم الذين لا يحملون فى رءوسهم أى شىء . . ويضعون فى جيوبهم كل شىء . . ويملكون القدرة على شراء أى شىء . . ابتداء من مقاعد مجلس الشعب . . والأقلام غير الشريفة . . والقنوات الفضائية . . وجلسات الاسترخاء . . وساعات المؤانسة . . ومضابط القرارات الاقتصادية . . وكرابيج التأديب الناعمة . . وترسيخ المفهوم الاستعمارى «اضرب المربوط يخشاك السايب . . » ثم التمتع بالاستخدام الأمثل لقانون الطوارئ . . ذلك السيف الوديع النائم فى استرخاء داخل جراب الحَذر . . سيف حنون يقول لك : لا تخشنى . . ولكن لا يجب أن تنسانى . . وما بين الخشية والنسيان يا قلبى لا تحزن . . يكفيك أن ترتعد أمام إشاعة ـ مجرد إشاعة ـ تقول إن أوامر الاعتقال الموقعة على بياض جاهزة فى الأقسام . . والعنوان البرىء لن ينجح فى تهدئتك وإقناعك حتى لو كان يقول : إنه أمن البلاد . . لا بد أن نحميه . .

ـ عدنا إلى قصة الشرطى والمثقف . .

ـ أو الشرطى والسياسى . .

ـ أو الشوارب المفتولة والحذاء الغليظ والعصا القاسية أمام الوجه الممصوص والفكر النبيل . .

ـ إذن، فماذا يفعل السياسى؟ . .

ـ أو كيف يتصرف المثقف؟ . .

قال هو : فلينخرط السياسى إلى موكب الحائرين . .

وقلت أنا : ولينضم المثقف إلى موكب المهمومين . .

ثم لم أجد ما أقوله رغم ازدحام صدرى بالكلام . . ولم أجد ما أفعله رغم شعورى بالنشاط . . فهممت بالوقوف وأنا أسأله :

ـ الكافتريا التى على بعد خطوات من مكتبك هل جربت الجلوس عليها؟

فأجاب مسرعًا :

ـ لا . . لم أفعل ذلك أبدًا . . ولم أفكر فيه . .

ـ هل تجيد لعبة الطاولة؟ . .

ـ لم أقربها منذ شبابى . .

ـ إذن . . فهيا بنا . .

ـ إلى أين؟ . .

ـ إلى الكافتريا . . لنلعب الطاولة . . سأذكرك بأصول هذه اللعبة . .

راح يحملق فى وجهى مستغربًا . .

ـ هل أنت بالفعل تعنى ما تقول . . نجلس على الكافتريا ونلعب الطاولة؟ . . هل هذا معقول؟ . .

ـ إنها طريقة بريئة لهروب الحائرين والمهمومين . . ولقد اكتشفت الآن أننا منهم . . السياسى الشريف . . والمثقف الرومانسى . . هيا بنا . .

ضغط على زر الجرس . . فجاء الساعى . . طلب منه أن يستدعى بعض الموظفين الذين ذكر له أسماءهم . . توافد الموظفون تباعا . . راح يرتدى البالطو الثقيل فوق بدلته وهو يحدثهم باهتمام :

ـ أنا ذاهب فى مشوار مهم مع الأستاذ، إذا كان هناك ما يستدعى طلب رأيى . . فاتصلوا بى . . فأنا هناك . .

سأله أحدهم : هناك؟ . .

أجابه بسخرية : أجل هناك . . فى كافتريا الزعيم ألا تعرفها؟ . .

قال أحدهم : إنها قريبة منا . . أنا أعرفها . . هل هناك موعد مع عميل هناك؟ . .

قال بسرعة : لا . . لا . . لا عملاء ولا دياولو . . كفانا عملاء . . سنذهب لنلعب الطاولة . . الأستاذ ذكرّنى بها . . الطاولة شئ مهم . . مهم جدّا . . (ثم التفت إلىّ باهتمام قائلاً) : الآن فقط عرفت أنك مثقف عبقرى . . وتتابع حياتنا السياسية بوعى واهتمام . . (ثم التفت إلى شباب المحامين قائلاً) : هل تدرون أهمية الطاولة فى حياتنا؟ . . لقد ادعى بعض الخبثاء الظرفاء أن الدكتور عاطف صدقى قام بتكوين أول مجلس وزراء تحت رئاسته وهو يلعب الطاولة . . وكان الوزراء المختارون هم أطراف اللعبة الحريفة . . هل فهمتم الآن أهمية الطاولة؟ . . هيا بنا يا أستاذ . .

* * *

(٣)

مصرى غير مقهور .. مصرى غير موجود ..

كان يحتمى من البرد بالبالطو الثقيل عندما قام بغلق كل أزراره ورفع ياقته إلى أعلى وحول رقبته ونحن نواجه تيار الهواء الراكض نحونا باردًا وسريعًا . . وما إن قطعنا الشارع الذى يقع به مكتبه وأصبحنا على طريق الكورنيش الذى يتعامد عليه شارعه حتى ازدادت حدة الهواء . . ولأن الكافتريا تحتل ناصية الشارعين فقد دلفنا سريعًا إليها . . فتشت بنظرة سريعة عن منضدة خالية يسمح لنا موقعها بمشاهدة النيل . . ما إن وجدتها حتى أومأت له أن يتبعنى . .

كان الدفء يسرى فى المكان قياسًا بموجة البرد التى تسرى فى الخارج . . وكانت سحابة الدخان المنعقدة فوق رءوس الجالسين تجد لها مهربًا كلما تحرك الباب لاستقبال وافد جديد . . وكان صوت النرد المرتطم بأرضية الطاولة الخشبية يصك أسماعنا منبعثًا من عديد من المناضد . . وكان صوت الماء الذى يراوغ أنفاس الهواء المسحوبة من ندماء النرجيلة يشبه هسيس أنفاس النائمين إرهاقًا بعد عناء يوم طويل . . ولم يكن هناك ما يعكر صفو المكان من ضجيج . . إذ يبدو أن صاحب الكافتريا اختار أن يخفض صوت التليفزيون حتى ينتهى هذا الضيف الفخيم من الإجابة على أسئلة تلك المذيعة المتصابية . .

قلت له وأنا أطالع صفحة الكورنيش الخالية ـ إلا قليلاً ـ من المارة :

ـ للمقهى تاريخ مثير مع نجيب محفوظ وندمائه . . لو كنت مكانك لعقدت صداقاتى مع الشعب من هذا المكان . .

لاحت على فمه ابتسامة مراوغة وهو يطالع وجوه الجالسين خلسة ويومئ بالتحية لبعضهم بين آن وآخر . .

ـ صدقنى . . لم يشغل بالى هذا الموضوع لحظة . . لا أدرى مدى صحة ما اعتمل فى نفسى على مدى حياتى من أن المقهى مضيعة للوقت . . لعلى تأثرت بهذا الرأى الذى سمعته من أبى وأنا صغير . .

ـ ألا ترى أن الحضور يأكلونك بعيونهم ومنهم صاحب الكافتريا؟ . .

ـ من المؤكد أن هذا يحدث . . لعلهم يتساءلون إن كنت أنا أحمد منصور أم شخصًا يشبهه؟ . .

ـ سأطلب الطاولة حالا . . ماذا تشرب؟

واستدرت مناديًا الجرسون الذى أقبل مسرعًا . .

ـ شوف أحمد بك . . ماذا يشرب . . وهات طاولة . .

أوقف أحمد منصور الجرسون بإشارة من يده . . ثم التفت إلىّ:

ـ لا داعى للطاولة . .

ثم التفت إلى الجرسون: أعطنى فنجان قهوة . . سكر مضبوط .

راح الجرسون يفرك يديه بشىء من الغبطة . .

ـ أحمد بك منصور؟ . . نوّرت المكان . . كنت أؤكد لعم عبد الكريم منذ لحظات أنه أنت . . وهو لا يصدقنى .

وأشار بيده إلى موضع جلوس صاحب الكافتريا . . وتتبعت نظراتنا اتجاه إشارته . . لقد كان الجرسون يدعو معلمه للحضور إلى موقعنا وعلى فمه ابتسامة انتصار من أصاب الهدف . . وجاء عبد الكريم خفيفًا بشوشًا، وراح يصافح الأستاذ فى اهتمام وسرور معبرًا بكل ما أطلقه من كلمات المجاملة أن المكان ـ بالفعل ـ قد ازداد نورًا «بقدومك إليه . . وأنت الجار العزيز . . والباشا العريق . . وابن القناطر الخيرية الذى يحبك فيها كل الناس . . حتى طوب الأرض» . .

كان يقف خلف الجرسون ومعلمه رجل نحيف ذو لحية صغيرة يرتدى بدلة صوفية أنيقة ورباط عنق ينمّ لونه عن ذوق سليم لاختياره مناسبًا مع لون البدلة . . وكانت تلوح على وجهه ابتسامة واسعة وهو يشد أنفاسًا من سيجارته المعلقة بطرف مبسم ذهبى اللون . . وما إن انتهت موجة الترحيب التى ختمها عبد الكريم بقسم غليظ أن كل مشروبات الليلة تعتبر خالصة الثمن . . وما إن تحرك إلى مكانه حتى تقدم الرجل النحيف نحونا مادّا يده إلى الأستاذ بالمصافحة . .

- أحمد بك منصور؟ . .

وقف الأستاذ ـ بعد أن كان قد جلس بعد انصراف عبد الكريم ـ وراح يتأمل وجه مصافحه . .

ـ من؟ . . أنت؟ . . (وراح يتذكر) . .

ازدادات ابتسامة القادم النحيف :

ـ إمام . . أنا إمام . .

ازدادت حرارة المصافحة بينهما . . واهتزت السواعد والأكف وهى تؤكد عمق الامتنان لهذا اللقاء الذى جاء على غير موعد . . سحب الأستاذ كرسيّا وطلب منه أن يتفضل بالجلوس معنا . . التفت إمام خلفه وأشار للأستاذ مستأذنًا أن ينهى جلسته مع صديق له على المنضدة « التى هناك » وأشار بعيدًا حيث يجلس صديقه . .

ـ طالما سيادتك هنا . . كلها نصف ساعة وأحضر إليك . . أنا سعيد برؤياك يا أستاذ . .

وانصرف فى أدب . . وراح الأستاذ يرنو إليه فى مشيته الوقورة بشىء من الدهشة والتعجب مرددًا :

ـ ياه . . إمااااام؟ إمام إمام الإمام . . كم سنة؟ . . كم سنة مرت دون أن أراه؟ . . احنا فى سنة كام؟ . .

كأنه كان يسألنى أو يسأل نفسه وهو مذهول . . فأجبته سريعًا . .

ـ ٢٠٠٣ . . نحن فى عام ٢٠٠٣ . .

راح يردد :

ـ ٢٠٠٣؟ . . إذن هى ١٥ سنة . . كنا فى عام ١٩٨٨ .

(ثم التفت إلى وسألنى) :

ـ هل سمعته وهو يقول إنه سيحضر إلينا بعد نصف ساعة؟ . .

ـ أجل . .

ـ إذن سننتظره . . حتى لو غاب ساعة . . أريد أن أعرف أين كان؟ . . وماذا حدث له؟ . . ياااه . . إمام! . .

كانت قهوته قد وصلت . . فأشعل سيجارة . . وراح يرنو عبر الزجاج إلى الطريق وقد تهيأ لاجترار ذكرى إمام وهو يهز رأسه بأسى . . كان واعيًا لما حدث لى من فضول جعلنى أغرق فى صمت وحرج ألما بى . . هذا الحرج أتى من عدم قدرتى على الافصاح عن رغبتى فى التعرف على قصة إمام . . القصة الناقصة ـ كما سمعت ـ والتى لا يعرف الأستاذ نهايتها . . وكأنه يعيد على نفسه فصول رواية قرأها فأعجبته . . وعندما انتهى منها آلمته . . راح يروى لى :

ـ «إمام هذا لم يتلقَّ إلا قسطًا يسيرًا من التعليم . . تعذب فى طفولته ؛ إذ انحدر من ظهر أب مزواج . . أب يحب السفر والنساء . . أنجبه وطار إلى اليونان فتزوج وأقام هناك وتركه صبيًا صغيرًا هو وبعض إخوته مع أم لم تستطع أن تضبط العلاقة المتردية تاريخيًا بين زوج الأم وابنها من رجل آخر . . ألقت به إلى إحدى ورش الميكانيكا . . لاقت صنعة إصلاح المعدات هوى فى نفسه . . ظل يتغذى بفنونها دون طمعٍ فى مال أو حسن معاملة من أصحاب الورش حتى برع فى مجاله الواعد وهو يقترب من سن الشباب . . التقطته شركة كبرى عندما لمست فى أنامله الرقيقة دقة جرّاح القلوب وهو يعالج قلوب المعدات الضخمة التى تحركها طلمبة أشبه ما تكون بقلب الإنسان فى دهاليزه وحجراته وأوردته التى تدفع الدم ويندفع منها الدم . . ولفرط رقته وأدبه وعشقه لعمله وبراعته فيه التقطه أحد الوكلاء المشهورين بتسويق وصيانة أوناش ولوادر

وبلدوزرات شركة عالمية تنتج هذه المعدات . . لم يلتقطه هذا الوكيل ليستفيد به وبخبرته لنفسه ولكن ليهديه إلى صديق إنجليزى يدير وكالة مماثلة فى جنوب أفريقيا . . وطار إمام المتزوج حديثًا ـ ومعه زوجته ـ إلى جنوب أفريقيا وهو لا يفقه فى اللغات إلا لغته المشهورة فى مداعبة قلوب المعدات الثقيلة . . وما لبث لفرط طموحه أن أتقن الإنجليزية فى عامين ليصبح بعد خمسة أعوام رئيسًا لقسم صيانة الطلمبات، وليجد نفسه رئيسًا أنيقًا وفاهمًا ومتواضعًا لنخبة من الفنيين الذين هم خليط من الأفارقة والانجليز الذين راح يتمتع بحبهم وإعجابهم . . ثم ما لبث بعد خمسة عشر عامًا أن وجد حصيلته من المدخرات فى البنك تصل إلى المليون دولار . . أسرع إلى والده فى اليونان طالبًا المشورة فيما يجب أن يفعله بهذه الحصيلة . . ذلك أن إماما هذا لم يتخلَّ عن التواصل مع أبيه ومطاردته بالمراسلة من مصر، ثم بالزيارة المتكررة له فى اليونان واضعًا فى اعتباره أنه يجلب لنفسه الدفء والانتماء بإحياء تلك الأبوة الغافية رغم أنف صاحبها . .

قال له والده والذهول يخطف حاجبيه إلى أعلى: «مليون دولار»؟ . . أخرج إمام والده من ذهوله وهو يوضح له كيف أعطى خبرته لأصحاب المصالح بالمقابل فى وقت راحته وإجازاته فى عمليات سريعة يتفق عليها بالمقاولة . . ثم ضرب له مثلا وهو يبتسم بإعزاز عن شركة تعطل لها ونش عملاق فى موقع العمل . . وطالت وقفته عدة أيام محققًا لأصحاب العمل خسارة تصل إلى ألفى دولار فى اليوم الواحد . . طلبوه ووصفوا حالة مريضهم . . لمح صاحبنا من وصفهم أسباب المرض . . وفهم أنه سيعالجه فى وقت لا يزيد عن الساعة . . قدر لنفسه أتعابًا قدرها ألف دولار . . يدفعونها قبل خروجه معهم على ألا يقترب منه أحدهم وهو يعمل . . وأن يمهلوه يومًا كاملاً يتكبدون فيه ضيافته . . ولم يكن فى حاجة إلى اليوم الكامل حيث أنهى مهمته فى ساعتين . .

قال لأبيه : عند الخواجات التزام شديد باحترام التعاقد . . وحرص شديد على كتابته قبل تنفيذه . . ولعقودهم أربعة أركان . . وصف نوع العمل . . وقيمة الأتعاب . . ومدة إنجازه . . والشرط الجزائى فيما لو لم يتم إنجازه بنفس المواصفات خلال المدة المقررة . . وكنت أضع شرطا جزائيًا على نفسى يصل إلى عشرة آلاف دولار واثقًا من خبرتى وباعثًا فى نفوسهم الثقة حول هذه الخبرة . . فأقبلوا علىّ . . وتحركوا

نحوى . . لتتحرك زوجتى كل أسبوع إلى البنك بحصيلة مدخراتنا التى تزداد دون أن أهتم بمتابعتها . .

والآن يا أبى أريد أن أعود إلى مصر . . إلى بلدى . . إلى أهلى وناسى . . سأعود ثريا . . مليونيرًا . . قل لى : ماذا أفعل؟ . . أنا لم أجرب هذه الحالة . .

حاول أبوه أن يثنيه عن العودة موضحًا له أن وطنه الحقيقى هو المكان الذى به رزقه . .

وربما به زوجته . . عاد فأصر على موقفه : «وطنى الحقيقى هو الموضع الذى تلقى رأسى عند ولادتى . . سأرجع يا أبى . . مصر وحشتنى» . . ابتسم والده ساخرًا : غدًا ستندم . . مصر الآن بلد ترقص على السلم . . مصر لم تجرب الاعتراف بحقيقة ستكون فى نظرهم مذهلة وهى أن يكون إمام الميكانيكى من وجهاء المجتمع ومن أصحاب رءوس الأموال . . فإمام هذا كان (الواد بلية) منذ أن شاهدوه يتلقى الصفعات ليفهم الميكانيكا . . سيفرحون بك فى الظاهر . . ويطعنونك فى الخفاء . . سينعمون بموائدك الزاخرة باللحم الطيب . . ثم يختمون طعامهم بتذوق لحمك الآدمى نهشًا ونميمة . . صدقنى . . المصريون تعلموا من الفقر مثالب مخزية . . وعلّمهم الفقر مشاعر منحطة أقلها الحسد . .

قال لأبيه : سأعيش بعيدًا عن هؤلاء الذين نشأت أمامهم . . سأظهر لهم زائرًا من مسكنى الذى سأختاره فى الزمالك . .

استسلم الأب لجموح ولده الطيب :

ـ ما دمت تصر على العودة . . فعد وجيهًا . . ومادمت ثريًا فلتظهر عليك نعمة الثراء فى مكان فقير . . أنت فى الزمالك ستكون واحدًا من عشرات يركبون المرسيدس . . ولكنك فى قرى حلوان وعين شمس والقناطر الخيرية ستكون وجيها بالمرسيدس والبدلة الفخيمة . . ستحصل على قيمتك الأدبية هناك . . لن يعرفك أحد فى الزمالك . عش بثروتك وسط الفقراء . . تمتع بتبجيلهم . . ومتّعهم بحسناتك وابتلع حسدهم ونهشهم فى لحمك الغائب بفكر الأسوياء . . اعذرهم وأنت تلقى مهازلهم . . وكافئهم رغم غيظك منهم . .

تهلل وجه إمام وهو يتخيل مستقبله الوجيه ووجاهته المقبلة وسط معارفه بعزبة الوالدة بحلوان . . ووافق والده أن يقتنى فيلا فى حلوان . . ويعمل فى مجال النقل بشراء أسطول من خمسة لوارٍ ذات المقطورة . . يدعمها لودر للغرف والتحميل . . ثم ورشة للصيانة تجاور مكتبه وجراج سياراته . . «هذا هو عالمك . . معلم . . ستكون المعلم إمام . . » .

لم يكد يمضى عام واحد حتى عرف الناس فى حلوان من هو المعلم إمام . . ذلك الوجيه الوقور المتواضع المستنير . . فهو جميل فى كل شىء ما عدا دقته فى التعامل مع السائقين وحرصه على متابعتهم فى تسجيل ساعات العمل الفعلية . . وبرامج الغسيل والتشحيم وخدمة السيارة دون كلل لتبدو لامعة حتى لو كانت فى جبال الرمال . . وكان يكرر دائمًا . . إن الخواجات سبقونا وتغلبوا علينا لحرصهم على الأدب والنظافة والالتزام . . ثم يقول : ما معنى أن تقود سيارة ثمنها نصف مليون جنيه وأنت بشبشب وبنطلون حقير؟ . . نظافة السائق ووجاهته شىء يجب أن يكون قبل نظافة السيارة . . أما عن حقوقهم ورواتبهم فهم يحصلون عليها فى أصيل كل يوم خميس حول فناجين الشاى بمكتبه آخذين فى التوقيع على سراكى العمل التى يدوّن بها بكل دقة ساعاتهم المستحقة وتكون كلمات الوداع التى يسمعونها منه : تمتع بإجازة مع أولادك يوم الجمعة بأقصى ما تستطيع . . ستعود يوم السبت لتجد فريق الصيانة قد جهز لك سيارتك على أفضل ما يكون . . إجازة سعيدة . .

ويخرجون فى أدب وبداخلهم شعور عال بالرضا والاستحسان، ولكن لا مانع أن يعبر أحدهم عن رأيه فى المعلم إمام بحرية شديّدة وهو يبتعد عن مكتبه :

ـ الراجل ده محترم . . بس يغيظ . . ماشى على نظام الخواجات . . إحنا يا عم ناس فلاحين . . يعنى بالبركة . . مَشِّ حالك . . حاجة تفلق . . إيه إجازة سعيدة . . ومش إجازة سعيدة . . إحنا فين؟ . .

وقد لا يوافقه بعضهم على رأيه فيقول :

ـ إحنا كده يا ولاد البلد . . نشتكى من عدم النظام . . ولما يجيلنا النظام لغاية عندنا نشتكى منه . . جَتْكُم الفقر . . واحد بيديك حقك باحترام . . عاوز إيه تانى؟ . .

وحدث أن جاءه أحد السائقين بحصيلته من إيراد سيارته اليومى منقوصًا خمسين جنيها . . سأله عن السبب . . عرف أن أحد الضباط قد حصل عليها فى الكمين الرابض على كوبرى المرازيق . . سأله مرة أخرى عن السبب : «هل هى غرامة»؟ . . لا . . «إذن ، فما هى؟» . . «إتاوة؟» . . أجل . . «ولماذا الإتاوة؟ . . كل سياراتى نظامية الترخيص . . ليس من حق هذا الملازم أن يبتز أصحاب السيارات غير المخالفة . . فليبتز المخالفين . . اركب . . تعال معى . . لو لم أمنع هذا الحال من الآن سيركبوننا كالحمير . . هذا الاستعباد لم يقابلنى فى جنوب أفريقيا . . آخر بلاد الله الموصومة بالاستعمار هل هذا معقول؟ . . اركب » . .

وعاد هذا السائق ليحكى للناس عن المعلم إمام الذى دخل على الملازم طالبًا منه فى حدة أن يسلمه الآن وفورًا مبلغ الخمسين جنيها التى ابتزها منه . . وقال السائق إنه كان مرعوبًا وهو يرى هذه الواقعة التى تحدث لأول مرة أمامه . . وظن أن الملازم سيأتى بمسدسه ليطلق منه الرصاص على إمام . . ولكن يبدو أن «دَخْلة» إمام على الضابط بعد أن «فرمل» أمامه بسيارته المرسيدس فى عصبية جعل هذا الملازم المبتدئ يلجأ للمهادنة ويسلمه المبلغ فى هدوء حتى لا يثير اللغط حول نفسه . .

يقول السائق : قبل أن أركب بجوار معلمى . . الذى عاد إلى سيارته منتصرًا نادانى الملازم وسألنى : من هو هذا الأفندى؟ . . فأفهمته أنه المعلم إمام صاحب (العَجَلْ) . . فهز الضابط رأسه متوعدًا وهو يتمتم بكلمات فهمت منها أن هذا الموضوع لن ينتهى على خير . .

وجاء الشر بأسرع مما يتوقعه السائق أو إمام . . قضية تجريف أرض زراعية . . قضية كبرى لا يستطيع هذا الملازم البسيط أن يدبرها بمفرده . . ولكنه عندما لجأ إلى أصحاب (العَجَلْ) المنافسين ليسألهم عن ذلك « الإمام » أفاضوا فى ذمّه بسبب عنطزته . . وعندما سألهم المشورة فى الانتقام منه أفادوه خيرًا (بتلبيسه) قضية تجريف . . واترك لنا الأمر «يا باشا» . . «حنعمل لك شغل يجيب لك ترقية كمان» . .

كانت سيارات إمام تسير على الطريق . . فأوقف الضابط السيارة الأولى التى تحمل ترابًا جافًا تنفيذًا لعقد وقعه إمام مع إحدى الجهات . . ثم أوقف الثانية فالثالثة حتى

الخامسة وحجز السائقين إلى أن أتى اللودر بسائقه فحجزه أيضا . . وطلب من السائقين الست أن يتركوا المفاتيح فى سياراتهم ويذهبوا جميعًا لإحضار معلمهم . .

نفذوا جميعًا طلب الضابط . . وتحركوا نحو معلمهم ليحضروه . . وبعد انصرافهم برز ستة سائقين آخرين ومساعديهم وراحوا ينثرون العشب الأخضر فوق الأتربة الجافة المحمولة على السيارات ويضعون بعض هذا العشب بين مخالب اللودر حتى يُثبت للمحققين تلك الجريمة المحبوكة من أن سيارات المعلم إمام تعمل فى تجريف الأراضى الزراعية وبيع الطمى لأصحاب قمائن الطوب الأحمر تعديًا على القانون الطازج الذى يجرّم هذه المخالفة ويضعها فى نطاق قضايا أمن الدولة . .

أشار أصحاب « العجل» المنافسون لسائقيهم الجاهزين فى السيناريو أن يتحركوا بالسيارات ليضعوها بجريمتها أمام قسم الشرطة . .

جاء إمام مسرعًا ليجد غريمه الضابط فى انتظاره وعلى فمه ابتسامة التشفى . . وتذكّر فورًا وهو فى طريقه إلى القسم أن والده كان محقًا فى تحذيره له من أنه فى مصر سيحاط ببطون لا تشبع وقلوب لا تشفع . .

وأحاطته المؤامرة ولم تشفع له عقوده المبرمة مع عملائه فى إثبات حقه فى نقل الأتربة الجافة بعيدًا عن الطمى المجرّم قانونًا . . قالوا له إنه توارى فى هذه العقود ليحقق جريمته . . واحتُجز فى السجن على ذمة القضية . . وخرج بكفالة . . ولم يفرج عن سياراته التى هى أدوات الجريمة . . فظلت سنوات رهن الاحتجاز أمام القسم حتى تنتهى القضية إلى أن صدئت وتآكلت وصارت مكانًا لجلب قطع الغيار لمن يريد . .

جاء للأستاذ قبل المحاكمة طالبًا المساعدة . . فعندما سمع عن الأستاذ من بعض المعارف قطع له الطريق من حلوان إلى القناطر ليسلك معه طريقه الجديد . . طريقه المعوج . . الطريق الذى لم يعد أمامه غيره وهو رشوة القاضى . . قيل له إن هذا القاضى معروف للأستاذ . . ولكن الأستاذ أفهمه أن صديقه القاضى هذا لا يقبل الرشوة . . قام إمام بتعديل هذا المفهوم لدى الأستاذ وذكر له عدة قضايا تمتعت بالبراءة بعد أن تمتع هذا القاضى برشوته المحددة سلفًا . .

يقول الأستاذ: جاءنى هلعًا متبرمًا مذهولاً مما حدث ويحدث له، وعرض أمامى مطلبه فى خجل معلنًا بتضحيته الأخيرة فى شكل مبلغ يصل إلى خمسين ألف جنيه هى كل ما تبقى معه لينجو بحريته ويسافر عاجلا إلى جنوب أفريقيا ليبدأ من جديد..

تلقيت مطلبه بإشفاق وأدب.. حاملاً له العذر فى توجُّهه الشارد مؤكدًا له أن هذا القاضى معروف بنزاهته ومؤكدًا مرة أخرى أنه يحاول النجاة من مؤامرة عقدها له الحقد والافتراء ليقع فى مؤامرة يعقدها له النصب والاحتيال.. نصحته بذلك رافضًا ـ بكل رقة ـ ما جاءنى من أجله.. فذهب عنى.. ولم أره إلا الآن..

ويكمل إمام قصته لنا:

وصفوا لى منزل القاضى الجالس فى انتظار مبلغ الرشوة.. قالوا لى ادخل العمارة بملابس عادية حاملا لفافة من المشويات كأنك أحد عمال المطاعم التى ترسل بضاعتها للمنازل.. اسأل عن الشقة رقم كذا ولا تذكر اسم صاحبها.. سلمه اللفافة على الباب.. بها المشويات والرشوة.. لا تتحدث معه.. استلم منه ثمن المشويات وانصرف فورًا..

ذهبت وركبتاى تصطكان فى بعضهما البعض.. فتح لى رجل وقور الباب.. نظر فى وجهى بتمعّن.. ثم قفل راجعًا ونظر من الشباك إلى أسفل العمارة.. فهمت من قلقه أنه يخشى أن يكون واقعًا تحت كمين لإمساكه متلبسًا بالرشوة.. أخذنى الخوف أنا الآخر وأوشكت على القفول عائدًا بمشوياتى ورشوتى.. لولا أنه جاء ووجهه يحمل بعض العبوس.. همست له: اطمئن يا باشا.. فهمس لى: اطمئن أنت.. ثم سلمنى ثمن المشويات وعدت فرحًا.. وكلمته تزغرد فى أذنى: اطمئن أنت..

وفى قاعة المحكمة التى تواريت فى زحامها عرفت أننى وقعت فى عملية نصب واحتيال كما قلت لى يا أستاذ، فالقاضى الذى على المنصة لم يكن هو الرجل الذى استلم منى المشويات والرشوة.. تمسّكت بهدوئى ظانًا أن من قابلنى لا بد أن يكون أحد رجال القاضى وليس القاضى نفسه كما تقضى واجبات الحذر.. وتسللت عندما وقّع علىّ حكمًا ابتدائيًا بالسجن خمس سنوات.. وظللت هاربًا حتى تنعقد جلسة الاستئناف التى جندت لها كل وباقى إمكانياتى حتى أفلست تمامًا.. ولكن حصولى

على البراءة خفف عنى كل المذاقات المريرة التى جربتها كالفقر والقهر والهوان . . لقد انتهت معاناتى تلك منذ عشر سنوات . . وخرجت زوجتى من حياتى ثم عادت مرتين . . اخترت أن أنتقل من حلوان لأعيش هنا فى القناطر الخيرية عاقدًا العزم على ذلك وأنا أشرع فى تغيير حياتى ، فقد أعجبتنى هذه المدينة فى زيارتى الوحيدة لها عندما جئت فى طلبك . . كثيرًا ما فكرت فى زيارتك ، ولكنى عدلت عن ذلك خجلاً من نفسى ومنك . . فأنا لم أعمل بنصيحتك . . لقد أنجانى القدر من جريمة عقدت العزم على ارتكابها وهو أن أقوم بقتل هذا النصاب وشريكه . . وكانت يد الانتقام الإلهى أسرع منى عندما وجدتُه قد نال جزاءه بالقتل من غريم آخر . . أما القاضى المزيف فلم يكن سوى نصاب فى شقة مفروشة هى التى ذهبت إليها . . ونال جزاءه الإلهى بالسجن فى نفس قضية شريكه النصاب . . أما غريمى الضابط الذى بدأ مسيرته العملية مفجوعًا فهو الآن بالسجن يقضى عقوبة السجن المؤبد بعد أن ضبطوه يبيع الأسلحة المكهّنة لبعض التجار . . وكانت مصيبته أن التجار كانوا يبيعونها للإرهابيين وشملته القضية التى تفجرت وفجرت المجتمع الدولى عام ١٩٩٣ بقتل السياح فى الأقصر وجرفته كالقمامة فى طوفانها . . لقد زرته فى سجنه بعد أن علمت من الصحف بجريمته . . وأخذت له طعامًا وشرابًا ، وقلت له لقد كنت أنا المظلوم الذى ينام . . وأنت الآن الظالم الذى يجب ألا ينام ، ولما بكى متأثرًا ضممته فى أحضانى وبكيت معه . .

أخرج الأستاذ منديله ليمسح دمعة انحدرت رغمًا عنه ، وقال له :

ـ هل تعلم يا إمام أنك أنت النموذج الذى أضعه فى خيالى لشخصية المصرى الحقيقى ؟ . . المصرى الفرعونى ! ! . .

ثم التفت إلىّ ليذكرنى بأحاديثنا السابقة .

ـ كنا نسأل عن الحضارة . . إمام إمام الإمام هو . . الحضارة . . لم يتعلم فن المعاملة فى المدارس الحديثة . . ولكنه ورثها وأيدها بقبس من عنده لا يعلم مصدره . . لأنها فى داخله . . ولد بها . . واستجاب لشعاعها الهادئ يخرج من قلبه فى حب ويصل إلى الناس فى دعة . . أما الإبداع فهو ما وجد نفسه يؤديه فى مهنته مستجيبًا لقيمة جميلة تدفعه إلى ذلك . . هى قيمة التفوق . . أما الحرص والادخار فقد مارسه دون أن يعلم

قيمة ما يفعله . . وأما الأخلاق العالية التى يعامل بها كل الناس حتى خصومه، فهذا هو سماد الخصوبة الذى أضافه الإسلام إلى شجرتنا الفرعونية . . ومن هذه الأخلاق حُسن الظن والثقة فى الناس حتى النصابين منهم . .

واعتدل الأستاذ وهو يواجه إمام الطيب الوسيم الهادئ قائلا :

- فى مثل حالتك كان يجب أن تدخل السجن لتكتمل كل دواعى الدراما المليئة بالغرابة . . لأن مسلسلك وأنت المصرى الحقيقى لا بد أن ينتهى إلى السجن لتؤكد فكرة القهر الموروثة . . القهر الذى جاءنا مع الغزاة ونلناه منهم واحتفظنا به فى قلوبنا وخلف أبوابنا . . احتفظنا به حكامًا ومحكومين . .

ثم أطلق الأستاذ حكمته الأخيرة قبل أن ينهض للانصراف :

«مصرى غير مقهور . . إذن، فهو مصرى غير موجود» .

* * *

(٤)

لا يكفى أن تشاهده من بعيد .. اذهب إليه

ذكّرنى بإحدى قصصى القصيرة التى كنت أدعو فيها إلى الخروج من بين الجدران الصمّاء إلى الخلاء الرحيب . . وأن العودة إلى مراتع الصبا والشباب هى الدواء للنفس إذا ضاقت، والصدر إذا ازدحم . . أما إذا بحثنا عن هؤلاء الذين شاركونا نمو الملكات والغرائز، واقتسموا معنا طعام الذكريات، فهذا هو الملاذ للهروب من ضجيج الحياة . .

قلت له ـ وأنا أفهم مغزى إشارته ـ: إننى أجيد الهروب النبيل، ولا أطيل الجلوس فوق ركام الملل، وسرعان ما ألفظ تفاهات الآخرين؛ لأننى أدرك سلفًا أن الحياة قصيرة . . قصيرة إلى الحد الذى لا يجب أن نمعن فى تقصيرها . .

قال لى : تبعًا لما أسمعه منك الآن، فللخروج جدواه . .

وراح يتأمل جلستنا فى الكافتريا ويستعيد ذلك اللقاء الدافئ مع إمام إمام، وكيف أعاده إلى منزله وهو ممتلئ بالشجن ومتسربل بنوازع الحكمة . .

ثم راح يضحك وهو يسرد لى ذلك الهاجس الذى ألح عليه ليلتها . . فقد تمنى لنفسه أن يكون من هؤلاء الذين حباهم الله ملكة الكتابة الأدبية وقوة التعبير حتى يسجل ذلك الزخم الهائل من المشاعر التى كانت تركض فى داخله ولا يملك لها تهدئة أو إسكاتًا . . ثم تذكر تلك الحالة المعكوسة فيما بينه وبين توفيق الحكيم الذى تمنى لو كان قد أجاد فى شبابه تعلم إحدى الهوايات المسلية كالطاولة أو الشطرنج ليهرب فيها من ملل الكتابة التى ـ كما قال عن نفسه ـ لم يخرج منها بفائدة . . ولم يعد فى استطاعته الهروب منها، وقد كان أوْلى به أن يهرب إلى تلك الهوايات المسلية التى يجيدها كل معارفه . .

وعلت ضحكة أحمد منصور وهو يقول : تفضل . . حتى توفيق الحكيم كان يبحث عن مهرب من الملل فى آخر حياته . . ونحن الذين تعلمنا أن نهرب إلى كتبه لمقاومة الملل . .

كنا نشارك رواد الكافتريا جلستنا الثانية فى ذلك النهار المشمس والذى خرجنا فيه بمقاعدنا على الرصيف . . كان النيل يسبح فى ملكوته الخالد غافيًا . . وحالمًا . . متمهلاً . . يسرى فى تؤدة . . عابرًا البواكى المرصوصة فى سلام أسفل القناطر التى يمتد فوقها طريق ناعم يحمل الناس من الشاطئ إلى الجزيرة التى تبدو لنا غاباتها الشجرية الكثيفة عن بُعْد كالجنة العذراء . .

رحت أحيط المكان بنظرات الإعجاب، رانيا إلى الأفق البعيد الذى تملؤه خطوط الشطآن المطرزة بالأشجار . . فالتقاء فرعى النيل الشهيرين قد حدث فى هذا المكان . . أو قل إن هذا المكان يسجل بداية تشكيل دلتا النيل . . فمن مقعدى هنا أستطيع أن ألمح النقطة التى افترق عندها خليلان كانا فى بدء الرحلة متآخيين يقتسمان مغبة السفر الطويل من هضاب الحبشة وأحراش الزمان . . ومرا على القرى والبلاد فى زهو وسموق . . وظلا فى تعامد واستقامة تحرسهما جبال الشواطئ حتى أطلا على الخلاء الرحيب فقررا الفراق . . وكان وداعهما هنا : واحد إلى دمياط . . والآخر إلى رشيد . .

ولاحت ابتسامة على شفتى وأنا أصوّر بخيالى الشارد نهر النيل هكذا : مسافر فرْد تحول إلى فردين فجأة وبلا رغبة منه . . ولكنه ظل على سفره . . أو ظلا على سفرهما . . فسألنى أحمد منصور وهو يشعل سيجارته . .

ـ يبدو أن هذا المنظر قد خلب لُبَّك؟ . .

ـ بل أشعل خيالى . . هل تدرى ماذا يشغلنى الآن؟ . . أتساءل عن هذا المكان الذى هناك . . تلك النقطة البعيدة . . هل هى مكان التقاء فرعى النيل أم مكان افتراقهما؟ . .

ضحك من غرابة السؤال مجيبًا عليه بشىء من البداهة الراقية :

ـ إن كنت متشائمًا فهى نقطة الافتراق . . وإن كنت متفائلا فهى نقطة اللقاء . . هذا يعود إلى نفسك الشاعرة . .

ـ إذن، فلا علاقة فى ذلك بالجغرافيا؟ . .

ـ ولا التاريخ . . إنها نفس قصة نصف الكوب الفارغ . . ونصفه الآخر . . الممتلئ . .

ـ إذن، لا جغرافيا . . ولا تاريخ . . بل هو علم النفس . .

ـ ولعلها الهندسة . .

ـ كيف؟ . .

ـ قل إن هذه النقطة هى نقطة رأس المثلث . .

أعجبنى هذا الحل . . وهو حل لا يلجأ إليه سوى محام . . فإن كنت عاجزًا عن «تكييف» افتراق الفرعين أو التقائهما . . فدع عنك ذلك وابحث عن «تكييف» آخر . . ابحث عنه فيما بين الفرعين . . أى فى المثلث نفسه . . هذه النقطة التى نبحث لها عن تسمية لا تحتاج إلى تسمية . . فهى: رأس المثلث . .

قلت له متسليًا: وأين القاعدة؟ . . قاعدة المثلث . .

حبكت النكتة لديه، فأجابنى سريعًا: القاعدة فى «طالبان» . .

ثم راح يقهقه بعذوبة وهو يُكمل حوارنا:

ـ هل تختبرنى فى الهندسة؟ . . المحامى يجب أن يفهم فى كل شىء . . القاعدة التى تبحث عنها هى الخط الواصل بين مدينتى دمياط ورشيد . . وإذا أردت أن أزيدك علمًا فمساحة الدلتا أى مساحة المثلث هى نتيجة ضرب نصف القاعدة فى الارتفاع . . وخط الارتفاع الذى يجب أن يكون عموديًا على نقطة نصف القاعدة هو الخط الواصل تقريبًا من بلطيم إلى رأس المثلث الذى أمامك الآن . . ويمكننى الآن أن أحسب لك المساحة بالكيلومترات المربعة . . ولكن دعنا من هذا الآن . .

ثم تمهل قليلاً وهو يعود بذاكرته إلى الورّاء ويعاود إشعال سيجارة جديدة . . وقد بعث فيه الحوار الضاحك إشراق المؤانسة . .

ـ كانت أتعس لحظات عمرى وأنا أقلب فى كتب التاريخ بحثًا عن «مأساة مصر . . » وعندما وصلت إلى الحملة الفرنسية أذهلنى ما قام به علماء هذه الحملة من مجهود فى

رصد وتسجيل البلاد والعباد . . كنت أحس دائمًا أننا كنا كالتحف المرصوصة لا نعلم من ـ أوعن ـ أنفسنا شيئا ، وهم يدورون حولنا بالأوراق والأقلام والكاميرات والموازين ، ويبعثون أخبارنا إلى العالم ، كانوا مذهولين من خيبة الأحفاد الذين ينحدرون من هؤلاء الأجداد ، وكانت مشكلتهم أن يعلّمونا النظافة والاستحمام ومطاردة البق فى البيوت والقمل فى الرءوس . . تصور؟ . . بعد كل هذا التاريخ الطويل والحضارة الغائبة يأتى من يكتشف حالنا المزرى . . علمًا بأن الإسلام وضع لنا قواعد النظافة وبروتوكول المآدب والمصافحة والسلام وحسن الجوار وحب العلم كأحسن ما يكون . . وكنت أتساءل عن سر هذه الفجوة التى حدثت فى مسيرتنا مع الزمن أو مسيرة الزمن بنا . . لماذا توقف الاستمرار؟ . . ولماذا انقطع التواصل؟ . . من الذى عاجلنا بضربة فوق رءوسنا فغبنا عن الوعى؟ . . هناك جريمة ـ لم نعلم عنها شيئًا ـ حدثت لنا . . أو حدثت فينا . . ما هو تاريخ هذه الجريمة؟ . . وهل هو تاريخ واحد أم تواريخ كثيرة ومتجددة؟ . . ومن هم المجرمون الذين فروا وتركوا آثار جريمتهم فينا؟ . . تركوا الأثر الذى بدا فى عقول مُغيّبة . . وأجسام مريضة . . وبيوت خاوية . . وهل هؤلاء المجرمون يعيشون بيننا ، أم يعيشون فينا ، أم يعيشون بعيدًا عنا . . أم هم كل هؤلاء مجتمعين؟ . .

بدا لى أنه لن يتوقف عن سرد لواعجه ، فراق لى أن أخرجه عن هذا المسار الحارق . . أوقفته بإشارة مؤدبة . .

ـ دعنا من هذا الآن . . والأفضل لنا أن نعود إلى المثلث . . ونصف القاعدة فى الارتفاع . . ألا توحى لك هذه الفكرة بشىء ما؟ . .

ـ أى شىء؟ . .

ـ أن تبحث عن جماهيرك داخل مثلثك العتيد . . أن تكون ذراعاك كفرعى النيل تحتضنان المثلث حبًا وكرامة . . ذراعاك هما الفكر والطموح . . آن الأوان أن تطلق أفكارك من إسارها . . وأن ترفع الأقفال عن أقفاصك الحديدية التى تعتقل فيها برامجك ومبادئك وقيمك العالية . .

ـ أنت تشير إلى مشروعى الفقيد . . أملى الراحل . . حزبى الميت . .

ـ لماذا تسميه ميتا؟ . . كيف يموت من لم يُخلق بعد؟ . .

ـ ألا يموت الجنين فى بطن أمه؟ . .

ـ لقد اتفقنا أن هذا لا يحدث فى السياسة . .

ـ السياسة يحدث فيها كل شىء . . إنها لغة التناقض . . هذا بعض ما اكتشفته فى كتابى . . أو كشفته فى كتابى . .

ـ عندما شرعت فى عمل هذا الكتاب هل كنت تصبو إلى محاربة اليأس أم تصل به وبنا إلى الإحساس باليأس؟ . .

ـ لا أحد يتمنى مقابلة اليأس حتى على طبلية الإعدام . . ولكنك لا تملك لنفسك شيئًا وأنت تراه يطاردك فى كل مكان . . كنت أتمنى أن تسألنى عن عدد المرات التى ضحكت فيها بهذه الكيفية التى رأيتنى عليها اليوم . . لقد تذكرت الآن أننى لم أضحك منذ زمن طويل . . وسألت نفسى عن السبب . . لم أجد سببًا . . بل لقد اكتشفت شيئا خطيرًا وأنت تشير لى على رأس المثلث . . هذا المكان كنت أحبه فى شبابى . . ولكنى هجرت زيارته منذ أكثر من عشرين عامًا . . أنا لا أكاد ألتفت إلى وجوده . . ربما لم أعبر كوبرى القناطر إلى الضفة الأخرى إلا مرات معدودة فى هذه المدة . . ما زال لى صديق فنان يعيش هناك . . يئس من أن أرد له زياراته المتكررة . . كنت قد انشغلت بمراجعى وكتابى . . فآثر هو الآخر أن ينشغل بفنه ولوحاته . . تحوّلتْ لقاءاتنا التى تأتى مصادفة فى المدينة إلى نوع من اللوم المتكرر والعتاب المُحرج حتى صرنا نهرب من بعضنا البعض مللاً من تكرار اللوم والعتاب الذى أصبح وجبة ثقيلة الدم نتناولها رغمًا عنا . .

الآن فقط تذكرت ذلك . . والآن فقط تمنيت أن أعبر كوبرى القناطر إلى هناك . . إنها قصتك «الخروج» آن لى أن أعيشها بطريقتى . . يجب أن أذهب، وليتك تذهب معى إلى رأس المثلث لنزور هذا الفنان . .

ضاحكته وقد داخلنى سرور طاغٍ وأنا أراه يتسلل تدريجيًا إلى البقعة العذراء التى ترتاح فيها نفوسنا من عناء السفر . .

ـ سأذهب معك إلى هذا الفنان الذى يعيش فى رأس المثلث . . وستذهب معى إلى كل الجماهير الذين يعيشون بين أضلاع المثلث . .

ـ أى جماهير؟ . .

ـ جماهير حزبك . .

ـ أأنت جاد فى حديثك؟ . .

ـ أكثر مما تتصور . .

ـ أفى ظنك أننى بعد هذا العمر وبعد إصابتى بكل هذا الإرهاق لدىّ القدرة على إنشاء حزب؟ . . يا سيدى . . أنا عندما فكرت فى ذلك وتمنيته كنت أمتلك الصحة اللازمة والمال المطلوب . . والآن : لاصحة . . ولا مال . .

ـ ولكنك تملك ما هو أهم منهما؟ . . الفكر . . والطموح . .

ـ إنها البضاعة الخاسرة فى هذا الزمن الردىء . .

ـ لا . . إنهما الأمل الباقى للخروج من هذا الزمن الردىء . .

ـ أنت تفلسف الأمور . .

ـ وأنت تنأى بنفسك عن أفضل الأمور . .

ـ أنت مثقف رومانسى . . مثقف حالم . .

ـ وأنت سياسى لا تحلم . . سياسى يتخلى عن حاسة المشاكسة . .

ـ لا توجد أحلام . . لم يتبقَّ لنا سوى الكوابيس .

ـ أحلام الليل ما هى إلا ترديد لآمال النهار . . فلتهيئ شاشتك لاستقبال الإرسال القادم . .

ـ شاشتى لن تستقبل شيئًا ، فقد انقطع التيار ونفدت الطاقة . .

ثم نهض متثاقلاً وهو يدهس سيجارته الأخيرة ببوز حذائه . . وقبل أن يتهيأ للانصراف زفر من صدره زفرة حارة . . وواجهنى بوجه لا يخلو من حزن ألمّ به بعد حوارنا الأخير . . وقال لى :

ـ بدأنا جلستنا بالمرح . . وأنهيناها بالمشاكسة ، أهذا ما يفعله الأدباء دائمًا؟ . .

ـ ويفعله الساسة . . . أيضا . .

ـ إذن، فطعمنا واحد..

ـ وطعامنا واحد..

ـ صحيح.. فأنت لا تعدو أن تكون أديبًا يتعاطى السياسة.. وأنا سياسى يحب الأدب.. عمومًا.. ما رأيك فى زيارة لصديقى القديم.. القديم جدًا.. الفنان الذى حدثتك عنك..

ـ طبعًا.. هذه زيارة لا تفوتنى.. وقيمتها بالنسبة لى هى أننى سأؤرخ بهذه الزيارة ـ وأشاهد بها ـ عبورك إلى الجانب الآخر.. من المهم يا أستاذ أن نعبر إلى الشاطئ الآخر.. لا يكفى أن تشاهده من بعيد.. اذهب إليه..

* * *

(٥)

المثقف الذى يتخلى عن عقله لينجو بطعامه

كان فارع الطول ، ورشيقًا . . ذا وجه أبيض ضارب إلى الحمرة، خصلات شعره الأبيض ـ إلا من بعض السواد ـ تتماوج على جبهته . . قابلنا وهو يرتدى ـ فى هذا البرد الشورت القصير الذى يعلوه قميص من القماش السميك . . ساقاه النحيفتان ذَاتَا العضلات القوية المشدودة تشيان بأن صاحبهما يمارس الركض . . راح يخبط على ركبتيه فى مرح . . ثم راح يردد وهو يخترق بنا حديقة منزله الصغير . .

ـ ظهورك المفاجئ هذا معجزة يا ابن منصور . . يبدو لى أن الموتى ـ هم الآخرون ـ سينهضون من المقابر . .

قال له أحمد منصور بوقار بدا من صوته العميق المتحشرج وهو يشير إلىّ وعلى فمه ابتسامة . .

ـ صديقى الذى معى هذا أديب وشاعر . . آخر ما قاله لى هو أن الحياة أقصر من أن نقصرها . . تذكرتك . . فالعمر يقترب من نهايته . . فقررت زيارتك . .

كنا قد وصلنا إلى الشرفة الواسعة المطلة على الحديقة، وبدأ يقدم لنا المقاعد الخفيفة المصنوعة من الخيزران لنجلس عليها . . ثم راح يواصل مداعباته . .

ـ . . وطبعا قلت لنفسك يجب أن أرى مفتاح الصاوى مرة واحدة على الأقل فى نهاية الدنيا حتى لا يمارس لومه الممل لى فى بداية الآخرة . . إذا قابلنى هناك . .

ـ وهل تظن أننا سنلتقى صدفة فى الآخرة كما كنا نلتقى صدفة فى سوق المدينة كل عدة سنوات؟ . .

أجابه وهو يضفى على صوته طابع الجد:

ـ هذا يتوقف على شىء واحد..

سأله أحمد منصور باهتمام..

ـ ما هو؟..

ـ أن يكون فى جنهم سوق نلتقى فيها..

ثم أطلق ضحكته العالية.. صافية الملامح عديمة الهم.. حتى انتزع ضحكاتنا التى راحت تهز هدوء المكان..

وما أن هدأت موجة الضحك قليلاً حتى سأله أحمد منصور مداعبًا..

ـ ولماذا اخترت جهنم مكانًا للقاء؟.. لماذا تجبرنى أن أنتقل إليك.. من الجنة؟..

ـ الجنة!!.. أتتعشم فى الجنة؟.. إنت حر.. اذهب إليها.. فسوف تجوع هناك.. حتى خياراتك فى الآخرة غير سليمة مثل خياراتك فى الدنيا؟.. لن تجد هناك القضايا التى تكفيك.. النار يا أستاذ كلها قضايا.. أنسيت أنك محامٍ؟..

وراح يضحك فى همجية مناديًا ـ وهو يدلف إلى الداخل ـ سيدة، عرفنا فيما بعد أنها تتولى خدمته فى هذا المحراب الذى اختار أن يعكف فيه متفرغًا لفنه بعد أن أحيل إلى المعاش، وتوفيت زوجته، وانتقل أولاده إلى أعمالهم وبيوتهم فى القاهرة..

جاءت السيدة العجوز لتقدم لنا الشاى وعلى فمها بقايا ابتسامات كانت تتمتع بها مما يصلها من مشاغبات سيدها مع ضيوفه الجدد الذين تراهم لأول مرة.. ويبدو أنها قد جبلت على طريقة سيدها فى إطلاق المداعبات والفكاهات أينما كان وكيفما يكون فكانت ابتساماتها تشى برضاها عن ذلك.

ساد بعض الهدوء الذى قطعه مفتاح الصاوى بسؤال لائم ـ كالعادة ـ وجهه إلى أحمد منصور..

ـ شاهدت كتابك ـ مصر.. الأم ـ مع أحد أصدقائى.. وقرأت على غلافه الداخلى إهداءً منك إليه.. توقعت أن تصلنى نسختى حتى ولو بالبريد.. ولكنك كما

يبدو تصر أن تخسرنى كقارئ بعد أن خسرتنى كفنان لم يعجبه هذا الغلاف التقليدى الذى لا يوحى بمادة الكتاب . .

ـ لك الحق فقد تعجلت فى عمل الغلاف . . كانت أنفاسى قد تقطعت فى البحث والتأليف ومراجعة البروفات ، وأصبح الغلاف ـ رغم أهميته ـ نوعًا من الوجاهة التى لم أعتن بها . .

ـ كيف يفوتك هذا؟ . . حتى العامة أنفسهم يرددون الحكمة الشهيرة : الخطاب يُعرف من عنوانه . . وبالتالى فالكتاب يُعرف من عنوانه . . أى غلافه . . عمومًا لقد فات أوان ذلك . .

ثم التفت إلىّ موجها سؤاله لى :

ـ هل قرأت هذا الكتاب؟ . .

سارعت فأجبته : أجل قرأته . . من الغلاف إلى الغلاف . .

أكمل حديثه معى : سأسألك أنت عن محتواه . . باختصار : ما الذى يريده مولانا من قول فى كتابه . . و بالعربى : هل قال شيئًا يستاهل منى التفرغ شهرًا كاملاً للانتهاء من قراءة كتاب بهذا الحجم؟ . .

– بالطبع يستاهل ذلك . . فأنت سوف تستمتع باصطحاب فتاة جميلة اسمها مصر ، وتسير معها فى كل دروب التاريخ ، وتتعرف على كل معذبيها ومحبيها . . كل حاضنيها ومغتصبيها . . وستبثك شكواها . . وستبثك حكمتها . . وسوف ترى العجب العجاب عندما ترى أن مصر كانت سيدًا يحكمه العبيد . . أو ترى واحدًا لا يملك إلا طعم البلاهة يجلس على كرسى العرش ويحكمنا . . باختصار ستتعرف على كل ترس من تروس الطاحونة الفولاذية الجبارة التى طحنت عظم مصر . . العظم الذى راح يتحول إلى تراب ثم عجينة . . وعندما يريدون إعادة تشكيل عجينتهم الجديدة لتخليق شكل جديد لشعب جديد يأخذهم الذهول عندما تظهر لهم نفس الفتاة وقد تشكلت على نفس هيئتها «مصر» . . فى كل مرة . . ولكنها متسربلة بالقهر والدموع متسائلة : ماذا فعلتم بى؟ . . اتركونى . . لن تتمكنوا من تحويلى إلى شىء آخر . .

راح مفتاح الصاوى يتأمل تلخيصى الأدبى لهذا الكتاب السياسى ثم هتف :

ـ الله . . إنها لوحة رائعة . . فتاة جميلة تبرز من بين أنقاض القهر والعذاب . . وجهها جميل وملابسها ممزقة . . هل من الممكن أن يوحى لى كتاب سياسى بمثل هذه اللوحة؟ . . لقد تكونت هذه اللوحة الآن فى خيالى . . من المؤكد أننى سأبدأ فى رسمها الليلة . . أشكرك . . طالما شكوت من نضوب بئر الإيحاء وافتقادى لطائر الإلهام . . ما أتعس المبدعين عندما يفتقدون رعشة الحافز ووهج الإثارة! . . لعلك تحس بذلك مثلى؟ . .

عاجله أحمد منصور بوعد :

ـ سأبحث لك عن نسخة . . لقد نَفَدتْ كل حصيلتى من النُّسخ التى خصصها لى الناشر . . هيا بنا إلى مرسمك . . أرنا إبداعاتك . . منذ زمن لم أستمتع بأعمالك . .

دلف بنا إلى الداخل وهو ينادى على الشغالة أن تلحق بنا فى المرسم ومعها فناجين القهوة . . وعلى باب المرسم لم نجد سوى الابتسام المرح ونحن نقرأ اسمه المكتوب على الباب، فقد رسم مفتاحا قبل كلمة الصاوى . . لاحظ علينا هذا الابتسام/ التعليق فهتف . .

ـ أنا الوحيد الذى يرسم اسمه ويكتبه . .

قال له أحمد منصور : لا لست الوحيد فى ذلك فقد سبقك إليه واحد أعرفه اسمه هجرس الفار . . فكتب كلمة هجرس ورسم بعدها فأرًا على بطاقاته . .

رحنا نضحك فى الوقت الذى هلت علينا لوحاته المعلقة على الحوائط والمسندة على الجدران والمعلقة على حوامل الرسم . . فذابت الضحكات، وحل محلها صمت الانبهار والتأمل . . أحسست فجأة أننى تحولت إلى شعاع هادئ راح يجوس فى أعماق وجدان وروح هذا الرجل الذى جذب من داخله قبضات إبداعية من فيض الوجدان وسجله رسمًا، كما يسجل الشاعر فيوضاته شعرًا ويسجلها الموسيقىّ أنغامًا . .

لاحظت أن الحصان يتمركز حادّا وقويّا وناعمًا وانسيابيّا فى معظم تكوينات لوحاته . . تراه هنا جامحًا يقف على ساقيه الخلفيتين ويطير بكل جذعه وساقيه

الأماميتين فى الهواء طارحًا رأسه الزاعق إلى الخلف بملامح أبرزتها العضلات التى نجح مفتاح فى تشريحها مملوءة بالغضب . . واللقطة كان منظورها من عند رأس الحصان الذى بدا ضخما ممتلئًا، ثم راحت هذه الضخامة وذلك الامتلاء تخف حدتهما ليتحولا إلى انسيابية ورشاقة وخفوت عند التقاء حافريه بالأرض حتى لقد بدا السائس ـ الذى يمسك بطرف اللجام وبيده كرباج صغير ـ ضئيلا وبعيدًا وروماديًا . . إن السائس بدا هكذا كما يبدو فى عين الحصان من نظرته العلوية إليه . .

وها هو حصان آخر يقفز قفزة خرافية امتد طرفاه الأماميان فيها حتى أصبحا أفقيين لفرط اتساع القفزة . . إنه يطير فى الهواء بين شاطئين . . مودعًا الشاطئ الذى قفز منه لا بكل ما فيه من جنات تجرى من تحتها الأنهار مستقبلا الشاطئ الذى قفز إليه بكل ما بدا فيه من دمار وحرائق وخراب واضح . . لا شك أن الفنان هنا يسجل حكمة ما أو إيحاء ما . . وهو يفعمك بالحيرة عندما يضع ابتسامة واضحة تشكلت فى ملامح هذا الحصان الذى يخطو إلى الدمار بكل الرضا . .

وهذا حصان ثالث : جميل له وجه شاب وسيم وله جسم أبيض شفاف امتزجت شفافيته بنعومة الرداء الوردى الذى ترتديه تلك الحورية التى تنام على ظهره فى سكينة وتغوص بأصابعها فى خصلات الشعر الناعمة التى تتماوج مع الهواء فوق رقبته المستسلمة لغفوة الحورية الحالمة . . التعبير واضح وناعم وجميل . .

وقف أحمد منصور متسمرا أمام لوحة امتلأت مساحتها بكفين عملاقين تغترفان قبضة رمال هائلة لتلقى بها فى حفرة سحيقة إلا أن الرمال التى تسيل فى الحفرة بدت فى مكوناتها قطعًا من الأحجار والحصى مختلطة بالأهرامات الثلاثة وأبى الهول ورأس توت عنخ آمون وتمثال رمسيس الثانى وكلها فى حالة تصدع وتفكك . . خلفية اللوحة قاتمة تاهت فيها كتلتا الذراعين اللذين برز منهما الكفان . . كأنما ـ هذان الكفان ـ قد برزا من حجب الغيب ، فسأله أحمد منصور : أهناك ما يخيفك من انهيار قادم؟ . .

قال له مفتاح الصاوى : الانهيار يسبقه إنذار وعلامات تنبئ بقدومه . . ولكنى هنا أتحدث عن تدمير . . عن خراب . .

عاد فسأله أحمد منصور : وماذا عن هذين الساعدين المدمرين؟ . .

أجابه الصاوى: لعلهما الغباء والجهل.. ولعلك تملك وصفًا آخر أو تسمية أخرى لهما.. يعنى لو وضعت لى أسماء أشخاص فلن ألومك.. أنت حر.. هذا فن استقبله بوجدانك ولا تطلب منى تفسيره..

تمتم أحمد منصور:

ـ إنها فكرة مقبضة.

لاحقته: أو نبوءة مقبضة..

ثم رحنا نطوف بهذا الكم الهائل من اللوحات التى سمحت مساحات الجدران بعرض الجزء اليسير منها.. أما رصيده الثرى من الإنتاج فهو مرصوص فى الأركان فراح يجذب لنا من لوحاته اللوحة تلو الأخرى موضحًا بتعليقات خفيفة بعض ما يريد توضيحه فى عجلة حتى يُمتعنا بأكبر قدر من هذا العطاء..

قلت له: لماذا الحصان؟..

قال لى: إنه مخلوق قوى وجميل ومشاكس يجب أن تقدّر قوته وجماله.. وأنا أحب القوة والجمال والمشاكسة الرافضة.. إننى أعشق العناد فى مواجهة التفاهة وأرفض أن يقوم الأغبياء بترويضى..

قال له أحمد منصور: كانت مشاكلك لا تنتهى مع رؤسائك فى هيئة الفنون.. كنت تبدو دائمًا كأنك مضطهد.. والحقيقة أنك كنت مستفزّا..

ابتسم مفتاح الصاوى: لقد حمدوا الله أن أدركنى سن المعاش وخلّصهم منى.. وكان سرورهم بمفارقتى واضحًا عندما تمكّن منهم السهو والنسيان فى إقامة حفل وداع لى؛ ولذا فقد كانت أول مهمة قمت بها أثناء عودتى من القاهرة بأوراقى ومتعلقاتى هى المرور على السنترال لطلب تغيير رقم تليفونى.. لعلى أعفيت نفسى من سماع كلمات النفاق قبل أن أعفيهم من اللجوء إلى ذلك.

قال له أحمد منصور: لقد كان الخاسر هو الجمهور.. محبو الفن.. وفنك بالذات.. لقد حجبوك عنهم..

أيده مفتاح الصاوى: أجل.. حتى لقد كتب أحدهم أن لوحاتى ما هى إلا مقالات سياسية محرّضة حتى يقطع علىّ الطريق.. ووجدوا ضالتهم فى أقلام مأجورة رسّخت هذا المفهوم لدى المسئولين الذين يرتعدون خوفًا من فقد مناصبهم فكانوا يشطبون اسمى من المعارض فى الداخل والخارج.. ودفعوا إلى الأمام بأسماء متواضعة الفكر والخبرة وسريعة الفهم لاستغلال المناخ، وراحوا يقدمون أعمالاً ليست نابعة من قلوبهم ولا تتميز إلا بإمكانية تمتعها برضا منظمى المعارض.. فمدرسة الألوان العشوائية التى تتعانق فى هذيان وتسرى فى تخريف ولا تحمل معنًى أو موضوعًا هى المدرسة المسيطرة؛ لأنها مدرسة الوزير..

قلت له: أخشى أن يكون الفن التشكيلى قد وقع هو الآخر فى ورطة التقليد الأعمى.. فشباب الشعراء تورطوا فى أول عهدهم بالشعر فى تقليد ما أتت به موجة الحداثة القادمة من الغرب قبل أن يمروا على خيام العرب القدامى ويجلسوا فى حضرة المتنبى والبحترى وأبى تمام أو يجلسوا على مناضد الأساتذة النبهاء شوقى وحافظ والجواهرى..

قال لى: وهل ما يكتبونه له علاقة بالشعر؟..

قلت له: ولا بالشعور..

قال لى: إذن، فمصيرهم هم وشعرهم إلى النسيان..

وقال أحمد منصور: ومصير دواوينهم إلى باعة اللب والترمس يغلفون فى أوراقها بضاعتهم..

فنبهه مفتاح الصاوى: وحتى هؤلاء عزفوا عن استخدام الورق منذ أن تعرفوا على الأكياس البلاستيكية..

قلت لهما متسائلاً: إذا كان البلاستيك هو الاختراع الرائع المواكب لسرعة الحياة.. فهل الفن الحداثى هو الاختراع المماثل فى وظيفته لمواكبة سرعة الحياة أيضًا؟..

قال مفتاح الصاوى: أعتقد أنك أصبت الهدف، فمع ما نحمله للبلاستيك من امتنان لأنه خفف عنا حمل الماء والدواء والمشروبات السريعة، وأبهج رحلاتنا الخاطفة بحمل

الكراسى والمناضد المنطوية بلا عناء، إلا أننا ما زلنا نرنو إلى البلور والرخام والأخشاب الثرية بروح التقديس؛ لأنها تذكرنا بالأصالة وإرث الجدود. . ولو كان الفن مجرد تسلية عابرة لحملنا للفن البلاستيكى نفس الامتنان الذى نحمله لمادة البلاستيك. . ولكن الفن ليس هو اللهو والتسلية ومحاولة ملء فراغ الوقت. . الفن الذى أعرفه لا يمت للبلاستيك بصلة. .

قال أحمد منصور: إذن، فما أعانيه فى السياسة تعانيانه أنتما فى الأدب والشعر والفن التشكيلى. . وأستطيع التمسح الآن فى هذا التشبيه العصرى الذى تطرقتما إليه وأؤكد أن الأحزاب الحالية تجلس على مقاعد بلاستيكية كمقاعد الرحلات العابرة. . مقاعد من السهل أن تُكسر ويلقى بها من الشباك. .

قال مفتاح الصاوى: وما العيب فى ذلك؟. . فهى تُلقى من المكان الذى دخلت منه. . كلهم دخلوا من الشبابيك خلسة؛ لأنهم لم يجدوا بابًا شرعيّا يدخلون منه. . وليس لهم سوى الخروج من نفس الشبابيك. .

قلت له: وبابك الشرعى المقصود طبعًا هو باب الجماهير. .

قال أحمد منصور: طبعًا. . إن الجماهير هى الباب الملكى الذى تسلكه الأحزاب المحترمة فى الدول المحترمة التى تتبوأ كراسى أحزابها. .

قلت لأحمد منصور: يبدو أنك قد وجدت ضالتك فى حديثنا معك. .

سألنى مفتاح الصاوى: ماذا تقصد؟. .

قلت له: لعلك تعرف أن صديقك القديم. . أو صديقك العائد بعد غياب كان يحلم بإقامة حزب. . ولكنه وتبعًا لما قلناه الآن آثر أن يجلس أمام الباب، ولم يشأ أن يقفز مثل الآخرين من الشباك. .

هتف الصاوى: أنا أؤيّده. . وإلا فيمكنك أن تطالبنى بإلقاء لوحاتى هذه فى النهر وأرسم لوحات جديدة تتماشى مع فن الوزير، لوحات لا تجد بها سوى هذيان الألوان؛ وطرطشة الصبغات المثبتة بفرشة الجير أو وجه المقشة. .

قال له أحمد منصور : وأنت الآخر قد أصبت الهدف يا مفتاح . . إننا الآن نحاط بقداسة الفكر فى رحاب مرسمك الواعى الذى تحمل لوحاته هدفًا وغاية . . ولكنك منطو على ذاتك وتمارس فنك بنفسك ولنفسك فقط . . أنا الوحيد الذى يمكنه قراءة لواعجّ العذاب الذى يزورك عندما تخلو إلى نفسك وتتساءل : وماذا بعد؟ . . أو : ثم ماذا؟ . . أو : إلى أين يا مفتاح؟ . .

اعترف له مفتاح : صحيح . . ما تقوله صحيح . . ولذا فأنا لا أحاول أن أخلو إلى نفسى . . إن مللت الرسم فأنا أهرب إلى الركض فى ربوع تلك الجنة الخضراء . . الناس جميعًا يشاهدوننى راكضًا . . أسمع منهم عبارات الترحيب وأنا أركض وأبثهم إيماءاتى بالتحية وأنا أنطلق . .

قلت لهما فجأة : أهلا بكما أيها اليائسان العتيدان . . أهلا بالأصالة الهاربة . . والثراء المذعور . . والفكر الجبان . . بالله عليكما ألا تريان أنكما وأنتما تحملان لب النصيحة واسم الدواء تخونان أنفسكما والناس ، وتحجبان النصيحة وتخفيان الدواء وتتجهان إلى الضياع والمرض؟ . .

قال أحمد منصور : لا تحاول أن تستفزنى أيها الشاعر الأديب وتدخل بى إلى حارتك المظلمة . .

سأل مفتاح الصاوى : أى حارة تلك؟ . .

أجبته مصححًا : من قال إن شارع النور هو حارة مظلمة؟ . . لا يقول ذلك إلا كل من يملك نفسًا يائسة وروحًا مهزومة . . ويسوؤنى أن أرى ذلك الآن أمامى : سياسى يائس . . وفنان مهزوم . .

قال مفتاح الصاوى محتجًا : الله . . الله . . الله . . ما هذا يا رجل؟ . .

ما الذى تقصده بهذا الهجوم؟ . .

أوضح له أحمد منصور : الرجل يطالبنى بالخروج إلى الجماهير . . ولعله راح يطالبك أنت الآخر بذلك . .

قلت لهما : الجماهير التى تبحث عن حل . . هى الحل . . فاخرجا إليها . .

سألنى مفتاح الصاوى: وهل خرجت أنت إلى الجماهير؟..

أجبته: أجل.. فأنا أذهب إليها بإنتاجى الذى أطبعه على نفقتى.. لم ألجأ إلى الدولة لتطبع لى أعمالى.. لم أضع نفسى تحت قيد الرقابة والمراجعة والتلكؤ فى انتظار التأشيرات والميزانيات والتدابير السفلية.. لقد استجبت لفكرة صديق حصيف وجدنى أملك المال ولا أملك تورط السلوك فى إنفاق بعضه فى مستنقعات الهوى الرخيص من نساء وخمر وميسر.. قال لى ما دام الله قد أعفاك من هذه المصائب فاعتبر أن قد أصابتك إحداها واخسر بعض مالك على نشر أعمالك وكأنها مصيبة لحقت بك.. ويمكنك أن تعزى نفسك بأنها مصيبة جميلة..

قال أحمد منصور متسائلاً: وهل تعتبر الاتصال بالجماهير مصيبة جميلة؟..

أجبته فورًا: أجل.. إنها أجمل المصائب.. لا بد أن تتسلح لها بالعزم والمال والصبر على المكاره..

ردد مفتاح الصاوى خلفى كلمتى الأخيرة فى تساؤل:

- الصبر على المكاره!!..

لاحقته:

- أجل.. لا تنس أننا أصبحنا شعبا نصفه يكره النصف الآخر.. أو على الأقل مستعد أو متحفز لكراهيته.. وعندما يجتمعون حولك سيُقبلون عليك بنفوسهم الجديدة.. النفوس التى أمرضها الهوان واليأس والتساؤل الذى غابت إجابته: أين نحن؟.. ماذا يحدث لنا؟.. ولماذا نحن كذلك؟.. فكن مستعدّا لترويضهم واجتثاث اليأس من نفوسهم، وزرع الأمل فى هذه النفوس.. ثم الدخول بهم فى مناطق الحب التى نسوها، فلعلهم يتعلمون تبادل الحب مرة أخرى.. أليست هذه مهمة صعبة؟..

هز مفتاح الصاوى رأسه مرددًا: أجل.. الحب الذى نسوه..

وقال أحمد منصور: الشرخ الذى نالوه.. شرخ فى النفوس يصعب علاجه..

قلت لهما: يؤسفنى أن أقول إنه قد نالكما هذا الشرخ..

قال لى أحمد منصور: وشرخنا أشد.. ألم نتفق من قبل على أن مشكلة المواطن العادى تنحصر الآن فى هَمّ بطنه.. ومشكلة المثقف أصبحت تنحصر فى هَمّ بطنه وهَمّ عقله؟..

قلت له: وهذا ما يريدونه: أن ينجو الفقير بطعامه، وأن يتخلى المثقف عن عقله لينجو هو الآخر بطعامه..

وفجأة توجه مفتاح الصاوى بسؤال إلى صديقه..

ـ هل نجوت بطعامك يا ابن منصور؟..

أجابه: طالما المحاكم قائمة فأنا ناجٍ بطعامى لا محالة..

فقال مفتاح الصاوى: وأنا أصبحت من الناجين.. فمعاشى يكفينى.. وواضح أن الأستاذ (مشيراً إلى) لديه طوق النجاة ما دام يطبع أعماله على نفقته الخاصة.. إذن، فالشئ الباقى أن ننجو فعلاً بعقولنا..

سأله أحمد منصور: يبدو أنك قد انجررت إلى الحارة المظلمة..

هتف مفتاح الصاوى: لا والله إنها مشاكسة الخيول الأصيلة التى ستخرج بى إلى الشوارع المضاءة وتركض بى بعيداً عن الحارات المظلمة..

ضحك أحمد منصور وهو يشير إلى اللوحة ـ لوحة الحصان القافز من النعيم إلى الجحيم:

ـ عكس ما تقوله فى هذه اللوحة..

أيده مفتاح الصاوى: أجل.. إنها لوحة يائسة.. زفرتُها من روحى وأنا رهن محبسى المختار.. السجن هو السجن حتى لو كان بإرادتك.. من قال إن جمال حمدان كان سعيداً بغربته داخل الوطن؟.. ومن قال إن ما أفرزه كان هو العسل المختزن؟.. لا شك أنه كان سيفرز ما هو أفضل لو أتى به عند أعتاب الجماهير ووسط زحامهم..

ثم اتجه إلىّ بحديثه:

ـ ما الذى أتى بك يا أستاذ مع هذا الرجل؟ . . هل لتتعرف علىّ أو على فنى؟ . .

حاولت النطق بالإجابة فأشار لى بالتوقف واستمر فى حديثه . .

ـ الواقع أن القَدَر قد أتى بك لأتعرف منك على نفسى . . أنا الفنان الذى فاز بهَمّ بطنه . . فنسى هَمّ عقله . . أنا الفنان الذى انخرط رغما عنه فى موكب الجماهير التى تبحث عن زادها دفعًا للجوع وتنسى كرامتها دفعًا للهوان فيما لو ساروا بكرامتهم مرفوعى الرءوس على غير ما يطلبه الحكام المصنوعون . .

ثم استدار إلى أحمد منصور لائمًا ومعاتبًا :

ـ لماذا تختفى يا ابن منصور فى الحوارى المظلمة؟ . . اخرج إلى الشوارع المضاءة . . واعمد إلى تأسيس حزبك المأمول . . والله معك . . وأنا معك . . وهذا الرجل معنا . . ولنبحث عن قاعدة تأسيسية نشيّدها من الحجارة الصلبة . . حجارة قوامها نفوس محاربة قوية نبحث عنها فى كل طوائف الشعب . . لا تنخدع فى المظاهر والشهادات والثراء . . ابحث عن النفوس التى تحمل المبادئ وسوف تجد أغلبهم فى ملابس رثة ، ويحملون بطونًا مليئة بحلم الشبع . . هؤلاء هم مادتك المثلى . . واجعل عنوان كتابك يا ابن منصور هو اسم حزبك حزب «مصر . . الأم» . . إن لم تنج بعقلك ، فلا فرق بينك وبين الحمار الذى يموت على قارعة الطريق شبعانَ ومتخمًا بالعلف . .

ثم أشار إلى اللوحة . . لوحة الحصان الواقف على ساقيه الخلفيتين . . عملاقًا يعلو رأس سائسه . .

ـ هذه اللوحة هى رمز حزبك الجديد . . الحصان الأصيل المشاكس . .

قال أحمد منصور : ألا بد من المشاكسة؟ . .

قال مفتاح الصاوى : المشاكسة تطرد الملل . . والمراوغة تجدد الغواية . . والحب إذا مات جدّده بحب جديد . . الاستسلام اغتيال . . والرضا دون اقتناع انتحار . . والموت على سرير الجُبن مذلة يأباها الفوارس . . لقد أنقذت حياتى مع زوجتى من الانهيار بحلٍ مشاكس . . تزوجت عليها . . تمسكت بحبٍّ عابر لاح لى فى عيون فاتنة . .

استجبتُ لهذا الحب، وانسحبت به ومعه إلى طريق الزواج وأنا أعانى من الملل والوهم والرتابة والديمومة ـ الإخوة الثقلاء الذين كانوا يشاركوننى سرير الزوجية ـ . . لقد هبّ على نفير الخطر . . زوجتى والأولاد . . عقدوا ضدى حزبًا محاربًا . . اجتمعوا كلهم ضدى . . تدارسوا الأمر . . أخذهم الصخب . . هزتهم الفاجعة . . طار الملل وضاع الوخم وانهزمت الرتابة وانسحبت الديمومة . . وكنت أستمتع بحبى الجديد وأنا أرنو إليهم من بعيد ضاحكًا وممتنًا . . هذا ما أردتهم عليه . . فريق جميل يتدارس المشكلة وقد كانوا لا يعرفون من قبل ما هى الدراسة وما هى المشاكل . . راحت الأم تتذكر حبها الذى ضاع أو يضيع . . وتتساءل : لماذا ضاع؟ . . ولماذا يمكن أن يضيع؟ . . وتنتهى من السؤال إلى إجابة . . وتظهر منها الإجابة فى شكل قوام كانت قد نسيت روعته وأغرقته فى السمنة فعادت إلى سابق عهدها فى رعاية زرعها الباسق ووجهها اللامع وذوقها الرفيع الذى كان قد انطمر تحت تلال المسئوليات الملحة . . ولمساتها الفنانة التى نسيتها فى غمرة ركام الكتب المدرسية وسندوتشات الصباح العاجلة . . لقد قفزتُ مشاكسًا من جنتهم إلى نار أعرفها وأعرف أنها ستكوينى قبل أن تكويهم . . وعدت إليهم كالعريس الجديد الذى يطأ جنة الحب لأول مرة .

أشار أحمد منصور إلى لوحة الحصان الذى يقفز من العمار إلى الدمار :

ـ كان يجب أن ترسم اللوحة الأخرى . . الحصان الذى يعود إلى العمار . .

حبكت النكتة لدى مفتاح الصاوى ، فقال له مسرعًا :

ـ اقلب اللوحة يا ابن منصور ، وأنت تراه . .

أخَذَنَا الضحك بقدرٍ يتمشى مع حرصنا فى البقاء على شاطئ الرزانة . . قال له ابن منصور جادًا :

ـ أنت أعادتك المشاكسة إلى جنتك وأسرتك . . ولكن مشاكستنا ستخلدنا فى نار السياسة . .

قلت له : الحلاج يا أستاذ منصور خلّده فكره ، ولم يُخَلِّد فكره فى النار . . لقد تعذب جسده . . وتطهرت روحه . .

أيدنى مفتاح الصاوى: أجل.. لقد تحيز لعقله ووجدانه وفكره.. ونسى بطنه التى تصرخ.. ونعله الذى يذوب.. وعباءته التى تتآكل كل خيوطها..

لا، ثم صمت قليلا قبل أن يقول:

ـ لا تتخلَّ عن عقلك لتنجو بطعامك يا ابن منصور..

وعندما وضع أحمد منصور رأسه بين يديه وأطرق طويلاً طويلاً أيقنت أنه سيعود إلينا بعد قليل بالخبر اليقين.. فجلسنا حوله صامتين نتأمل اللوحات التى تحيطنا من كل جانب حتى قطعت صمتنا الشغالة العجوز وهى تطلق دعوتها:

ـ الغدا جاهز يا بهوات..

فناداه مفتاح الصاوى ضاحكًا:

ـ هيا لكى تنجو بطعامك يا ابن منصور..

ثم تحركنا جميعًا نحو المائدة والصمت يلفنا.. وسكينة النفس تبعث فى قلوبنا الرضا بعد هذا الحوار الشائق الذى كشف لنا مناطق من النور كانت مختبئة فى نفوسنا ولا نعلم عنها شيئا..

* * *

(٦)

البكاء فوق المقاعد الحزينة

راوية عبد العظيم الطبيبة الحسناء بنت الأربعين عامًا التى تخوض حياتها بمفردها ـ بعد ترمّلها ـ بمجدافين من العزم الشديد والألم القاتل لا تمل من اجترار ذكرى أيامها الفائتة . .

تقول راوية عن نفسها وهى تبعث لمن حولها من الأحباب ابتسامة مريرة :

لقد كنت أنهل من بئر السعادة بلا وعى دون أن أدرى أن بئرى الثرى سيطمى فجأة، وأننى لن أملك ـ فى يوم ما ـ سوى تلمس آثار هذه السعادة : تذوقًا فى الخيال . . واشتمامًا من الذاكرة . . وخيالات تتهادى من الماضى أمام عينىّ المغرورقتين بالدموع . .

ثم تردد بنفس ابتسامتها المريرة :

مات «رحمى» فانقطعت عنى الرحمة . .

وعندما تنهال عليها الذكريات الحلوة وتتزاحم على عقلها صورها المشرقة ولقطاتها المختارة تسارع لتلتقط من هذا الزخم النبيل أحلى ما فيه من نقاط مضيئة لتثوب إليها مسترجعة «رحمى» من الماضى بصورته العذبة وصوته الرزين . . وتعود فتقول لنفسها ولمن حولها : إننى إحدى حالات العشق التى وضعوها فى نطاق الاحتمالات أو فى سِيَر الغرائب التى تحدث أحيانًا عندما أحببت «رحمى» بأذنى قبل أن أراه بعينى . .

كنت أستعد للسفر إلى السعودية للعمل كطبيبة فى إحدى القرى بالشمال . . كانت تتبع مدينة تبوك . . وكان أخى الذى يحمل شهادة فى المحاسبة يستعد للسفر معى كـمَحْرَم . . وكان الزواج بالنسبة لى قضية مؤجلة ، بل قضية لم تعد تشغلنى بعد أن انتهت قصة حبى مع زميلى فى الدراسة إلى فشل ذريع . .

لم أكن أعلم أن نصيبى فى الحياة مرصود فى سبابتى التى كانت تدير أرقام قرص التليفون وأنا أطلب شركة الطيران . .

يبدو أن سبابتى ـ بوحيٍ من المجهول ـ أخطأت أحد الأرقام عندما أتانى صوته ليرد على سؤالى :

ـ الخطوط السعودية؟ . .

ـ تحت أمرك . .

ـ لو سمحت عاوزه أحجز مقعدين لمدينة تبوك . .

ـ مقعدين اتنين بس . .

ـ أيوه يا فندم . . أنا وأخويا . .

ـ طيب . . ليه أخوكى بالذات؟ . .

ـ علشان يا فندم هو المَحْرَم معايا . .

ـ يبقى حضرتك مش متجوزة؟ . .

ـ أيوه يا فندم أنا مش متجوزة . .

ـ يا خسارة . .

ـ قصدك إيه؟ . .

ـ للأسف حنطبّق عليكِ التعليمات الجديدة . .

ـ تعليمات؟ . . إيه هى التعليمات دى؟ . .

ـ لازم يكون المَحْرَم هو الزوج نفسه . .

openkandil.com

ـ إزاى الكلام ده؟ . . أنا كنت فى السفارة من أربع تيام ومسمعتش التعليمات دى . .

ـ التعليمات دى من امبارح . .

ـ . . . . . .

ـ إنتِ رُحتى فين؟

ـ أنا مع حضرتك . . بس محتارة أعمل إيه . .

ـ حضرتك اسمك إيه؟ . .

ـ اسمى راوية عبد العظيم . .

ـ وبتشتغلى إيه؟ . .

ـ طبيبة . .

ـ وعندك كام سنة؟ . .

ـ سبعة وعشرون . .

ـ يا خسارة . .

ـ فيه إيه تانى؟ . .

ـ أنا باكلم نفسى . .

ـ يعنى إيه بتكلم نفسك؟ . .

ـ باقول لنفسى معقول دكتورة بالحلاوة دى والرقة دى والبراءة دى وعندها سبعة وعشرين سنة ولغاية دلوقت متجوزتش؟ . .

ـ . . . . . .

ـ إنت سكتِّى ليه؟ . .

ـ بصراحة يا فندم أنا شايفه إن مش من حقك تسأل السؤال ده؟ . .

obeikandl.com

ـ وبصراحة يا راوية أنا شايف إنك لازم تكونى أنصح من كده . .

ـ يعنى إيه؟ . .

ـ يعنى الإنسانة اللى فيها كل الرقة دى والبراءة دى والأدب ده . . ومؤكد أنها جميلة زى مانا شايف لازم تكون مسلحة بشوية نصاحة . . وشوية لؤم . .

ـ حضرتك دخلت بىّ فى موضوعات تانية ملهاش علاقة بموضوعى . .

ـ بس لها علاقة بموضوعى أنا . .

ـ موضوعك إنت؟ . . إيه يا أستاذ؟ . .

ـ أستاذ مين يا راوية . .

ـ راوية؟ . . هو انت سيادتك تعرفنى؟ . .

ـ أنا خلاص عرفتك . .

ـ يظهر أنا طلبت النمرة غلط وجانى واحد بيتسلّى علىّ . .

ـ ياه . . لسه فاكره؟ . .

ـ يبقى كلامى صح . . انت واحد بيتسلّى علىّ . .

ـ طيب . . أرجوك متقفليش السكة لغاية ما تسمعينى . .

ـ اتفضل . .

ـ فعلاً فى الأول كنت باتسلى عليك . . كنت فاكرك واحدة من اللى بيعاكسونى . .

ـ فيه بنات بياعكسوك؟ . .

ـ كتير . .

ـ طيب ليه تاخد وتدّى معاهم . . اقفل فى وشهم السكة . .

ـ أنا عادة باعمل كده . .

ـ طيب ليه ما عملتش كده النهار ده؟ . .

obeikandl.com

ـ الحقيقة . . وما تزعليش منى؟ . .

ـ لأ . . مش حازعل . .

ـ أنا أصلا قايم من النوم زهقان والدنيا سودة فى وشى . .

ـ يا ساتر يا رب . .

ـ سمعت صوتك : شىء كده ما اعرفهوش شدّنى قلت أرسم عليكِ . .

(خرجت منها ضحكة عذبة قال عنها رحمى بعد ذلك إنها كانت السهم الحقيقى الذى اخترق قلبه . . فقرر التمسك بها على التليفون حتى يتمكن من الإمساك بها فى أى مكان هامسًا لنفسه : تلك هى فتاتى . .) .

ـ يبقى انت شغّال رسم فى التليفون على طول . . قاعد طول النهار مفيش وراك حاجة غير الرسم على البنات . .

ـ لو الصورة دى هى اللى انت فهمتيها عنى يبقى ظلمتينى . .

ـ واظلمك ليه يا عم . . أنا مالى ومالك؟ . .

ـ أيواااه . . كده كويس . .

ـ هو إيه اللى كويس . . ؟ . .

ـ كنت من دقايق بتقوليلى حضرتك وسيادتك ويا فندم ودلوقت بتقوليلى يا عم . .

ـ قصدك إيه؟ . .

ـ قصدى إن احنا خدنا على بعض . . أو انت بالذات خدتى عليّه . .

(انطلقت منها ضحكة أخرى وهى تتأمل صورة رسمتها فى خيالها لصاحب هذا الصوت الهادئ الرزين الممتلئ بالثقة وخفة الدم، وتعجبت لإصرارها على المضى معه فى المحادثة مستبعدة ما جال بخاطرها منذ قليل من إنهاء المكالمة بأدب . .) .

ـ وكلامك ده يدخل بقى ضمن الرسم اللى انت واخد عليه؟ . .

ـ صدقينى . . كلامى ده يدخل ضمن اللحظة اللى أنا عايشها معاكى دلوقت . .

ـ صدقنى أنت . . أنا شايفه أنه يدخل ضمن اللى بيسموه : الرسم على تقيل . .

(هذه المرة هو الذى أطلق ضحكته العذبة . . والتى قالت هى عنها بعد ذلك إنها كانت السهم الحقيقى الذى اخترق قلبها . . فصفقت لنفسها إذ ظلت فى استجابتها لمكنون قلبها فى أن تحتفظ به على الطرف الآخر من الخط واهبة له : أذنها تسمع . . وقلبها يخفق . .) .

ـ لو انت شايفه إنه رسم على تقيل جايز يكون كلامك صح . . لأنى فعلاً عمرى ماجرّبته . . بس اللى انا حاسس بيه دلوقت إنى مش عاوز أنزّل السماعة . . وده لا هوّ رسم ولا حاجة . . دا إحساس أنا حاسس بيه . . وسعيد بيه . . لأنى أول مره أحس بيه . .

(ثم صمت لحظات طويلة . . التزمت فيها هى الأخرى صمتًا مماثلاً . . دون أن يدرى أحدهما ما الذى يمكن أن يقوله للآخر . . إلى أن قطعه هو بقولٍ مداعب . .) .

ـ زمانك دلوقت بتقولى فى سرّك دا بيرسم على تقيل قوى . .

(وهنا انطلقا سويّا فى ضحكة مشتركة . . لأنه فى عبارته الأخيرة ضغط بحدة وبخفة دم عالية على كلمة « . . . تقيل قوى . . » بالشكل الذى جاءت به كوميدية الأداء تحمل فى نبرتها روح أولاد البلد . . وبعد أن انتهت الضحكات فاجأته راوية بسؤال) :

– إنت بتشتغل إيه؟ . .

قال لها بهدوء وأدب ونبرة جادة بها رجاء وتصميم وعذوبة : ـ

– أنا دكتور زيّك . . واسمى «رحمى» . . ومستعد أعترف لك بكل بيانات بطاقتى الشخصية وقدام سيادتك وجهًا لوجه . .

قالت له بعذوبة مماثلة :

ـ إنت متأكد إنها بطاقة شخصية؟ . .

فهم مغزى سؤالها :

ـ والله شخصية . . مش عائلية . .

لاحقته وهى تضحك :

ـ من غير ما تحلف مصدّقاك . . وأنا مستعدة أسمع منك باقى البيانات فى المكان والزمان اللى انت تحدده . .

رقص قلبه فرحًا وهو يسمع موافقتها على الاستعداد لمقابلته . . وازداد رقصًا وبهجة عندما شاهدها تقبل عليه بمواصفات الملابس وحقيبة اليد التى حددتها له ، ولم يصدق نفسه وهو يرى هذا الملاك الذى شاهده بقلبه قبل أن يراه . . والذى دلته عليه مسامعه . . ثم رسمته فى الخيال خواطره . . وها هى العيون بعد اللقاء تُمهر وثيقة الحب بأحلى توقيع . .

تقول الطبيبة راوية عبد العظيم إنها عاشت أجمل وأسرع وأعذب قصة حب . . وبعدها بعام واحد عاشت أجمل وأعمق قصة زواج «ولقد كان هذا الحب العظيم وذلك الزواج النادر ثمرة خبطة عشوائية من سبابتى القدرية أتت لى من الغيب برجل كان من الممكن ألا يكون جالسًا فى انتظار هذا الخطأ، ولكنه كان فى انتظارى ؛ لأنه لم يكن من الممكن أن يتزوج امرأة أخرى . . كان لا بد أن يتزوجنى أنا . . تلك هى الحقيقة التى أمسكتها بيدى خلال حياتى معه . . الحقيقة التى لا تكتمل إلا بإقرارى أنا الأخرى أننى ـ بعد زواجى منه ـ لم أتخيل رجلاً آخر كان يمكننى الموافقة على الزواج منه سوى «رحمى . . » .

لقد اندفعتُ نحوه بجسارة وشغف أبديت فيهما استعدادى الفورى على إعادة صياغة أوراق سفرى ليحل هو محل أخى « عمرو » ، ويكون الرجل المَحْرَم المرافق لى فى السفر بصفته زوجى . . ولكنه بكل دمائته وطيبته أمهلنى ولجأ إلى صوت العقل وهو آخذ فى تهدئة صوت عاطفتى وشجعنى أن أستمر فى خطتى المرسومة حتى يتمكن هو من رسم خطته الخاصة التى يرتب فيها التزاماته ومتعلقاته بالشكل الملائم لتسوية أموره مع زملائه الأطباء الذين يديرون معه عيادتهم الشاملة فى حلمية الزيتون . .

قال لى : فليأخذ « عمرو » فرصته فى السفر معك . . وليثبِّت أقدامه هناك فى عمله . . حتى إذا حللت محله فى شرعية إقامتك لا أكون سببًا فى إزاحته . .

وكان هذا العام الذى سافرته بعيداً عنه من أطول الأعوام فى عمرى رغم ما شغلت نفسى فيه من ترتيب أنيق للمنزل الذى سيعيش معى فيه . . كنت أجهزه بنفسى فى صبر ودأبٍ شديدين معلنة أمام « عمرو » كل المشاعر الطيبة التى أحسها تجاه « رحمى » : .

عشر سنوات هى أحلى سنوات عمرى عشتها معه هناك . . هو مدير عيادته الخاصة . . وأنا أساعده بها ليلاً بعد الانتهاء من عملى الحكومى فى الصباح . . أحبَبْنا كل السعوديين . . وأحبّنا كل السعوديين . . وزاد حبهم لى عندما احتضنت أطفالهم فى عيادة «رحمى» كأنهم أطفالى بعد أن حرمنى الله من نعمة الإنجاب . . وأصبحت ـ ويا لسخرية القدر ـ السيدة الوحيدة التى لا يتعشم رحمى فى النهوض من سريره ذات ليلة ليسارع بتوليدها كما يفعل مع الأخريات من نساء الوافدين على السعودية (فالمواطن السعودى لم يكن قد تخلى عن تمسكه بعدم توليد زوجته على يد طبيب رجل) . .

كنت أبحث عن أى مرارة فى حلقه . . أو تقطيبة أسى على جبينه . . كأن يكون ساخطًا على حظه فى الحياة ؛ لأنه هو المحروم من الولد رغم جذبه لعشرات الأولاد القادمين إلى الحياة . . ولم أجد شيئًا من ذلك سوى أنه كان يحنو على قلبى . . ويقوّينى . . ويؤكد لى أن فرصتى قائمة حتى فى سن الأربعين . . ويسعى معى فى إجازاتنا لكل الأطباء المشهورين رغم ثقته غير المعلنة بأن حالتى ميئوس منها . . كان رغم فقده للأمل يحاول أن يجعلنى متعلقة بالأمل . . وكنت ألمح نبل ما يفعله وأعرف أنه يحاول أن يملأ وقتى بكل ما يمكن أن يبعث فىّ الأمل الغائب . . أو الأمل المفقود . . أو الأمل غير المأمول . .

كان يجب أن أكون أنا الطرف الباكى فيما لو طُرح أمامنا خيار الانفصال . . فأنا صاحبة القضية الخاسرة ؛ لأنى صاحبة الأرض البور التى لا تثمر . . ولكنه هو الذى بكى على صدرى كالطفل الصغير عندما أطلقت أمامه فى لحظة هم وتشاؤم رغبتى فى الانفصال . . ورغم ما أحطت به رغبتى تلك المعلنة من توضيح ومبرر لمقصدى ، إلا أنه طرح ذلك جانبًا وراح يلومنى على تلك القسوة التى أضع بها سعادته فى كفة وحرصى أن ينجب لنفسه ولدا من سيدة أخرى فى الكفة الأخرى . . فما هو بحاجة إلى ولد ليجلب له السعادة . . فيكفيه ما هو ناعم فيه من سعادة معى . . صحيح أن السعادة

بالأولاد لها طعم آخر . . ولكن طعم سعادته معى بها من الحلاوة ما يطغى على أى طعم آخر لأى سعادة أخرى . . (هكذا قال لى وهو يجفف دموعه ويتلقى قبلاتى) . .

كان قد حدد ـ منذ اليوم الأول لوجودى معه بالسعودية ـ حدود ذمتى المالية . . قال لى : إنه إنما حضر إلى هنا لمرافقتى ، وليس لكسب المال . . فقد كان دخله الميسور فى مصر ينبئ عن استحالة التفكير فى مغادرة البلاد بحثًا عن دخل أفضل . . ولذا فقد كانت حدوده المرسومة لأمواله وأموالى هى أن أدخر كل إيراداتى من العمل فى حساب خاص أديره بنفسى ولا شأن له به . . وبما أننى زوجته فهو المسئول عن كل مطالبى وراحتى فى الحياة . .

أما هو فقد راح يرسل الجزء المدّخر من إيراداته لحسابه فى البنك حيث يشرف عليه زوج شقيقته الوحيدة . . ولا يمل من نصحى بالمحافظة على كل أموالى حتى يقيم لى بها مستشفى صغيرًا فى مصر عندما نقرر العودة . .

لم أرتح لنظرات رئيسى الجديد فى العمل بمجرد وصوله وتعرّفنا عليه فى اللقاء الأول . . كان شابًا سعوديًا لا يملك القدرة على إخفاء ما تحمله عيناه من وقاحة وما تحمله نفسه من نقد وتجريح لمصر والمصريين . . قال ذات مرة لأحد العاملين المصريين رأيه فى مصر من أنها ليست سوى شارع الهرم ، فانبرى المصرى مدافعًا عن بلده دفاعًا مستميتًا تحول رغمًا عنه إلى هجوم على السعودية والسعوديين . . وكان أن تم ترحيله بعد أسابيع قضاها رهن الإهانة موقوفا فى السجن . .

توترت الأجواء . . وتبددت روح الألفة التى كانت تحكمنا وترفرف علينا فى محيط العمل . . وكنت من جانبى مهمومة دون باقى العاملين بقضيتى الخاصة مع هذا الشاب الوقح . . القضية التى تنبئ عنها نظراته الجريئة وإسقاطاته الفجة كلما أتيح له أن يلقيها أمامى بعيدًا عن الآخرين . .

قررت فيما بينى وبين نفسى تحمّل هذا القدر من السفالة طالما أنها لم تنته بما يشين ، وفى نيتى مواجهته بالعنف اللازم إذا تجاوز حدود الكلام إلى حدود الفعل . . حتى أننى بت أخطط لذلك لثقتى أنه ـ حتما ـ سيحدث . . وكان من بين ما خططت له أن ألقيت بمخاوفى أمام بعض من أثق بهن من العاملات السعوديات وأحد الإداريين الذين أثق

فيهم، وكان طافحًا بالغيظ والكراهية لهذا الرئيس الجديد.. وكان اتصالى بهم لا يحمل روح الشكوى قدر ما يحمل طلب تدخلهم لنصحه وهو ابن بلدهم وهُم الأوْلى بنصحه..

كان يجب أن تفيدنى هذه الاتصالات المسبقة فى اجتماع كلمة العاملين لصالحى وهم يدلون بشهاداتهم فى التحقيق مع الطبيبة المصرية التى ظلت تضرب رئيسها السعودى بالحذاء حتى أسالت دمه.. فلقد اضطروا جميعًا أن يضحوا بى خشية مما سوف ينالونه من لوم فيما لو وقفوا بجانبى.. أى بجانب الحق.. وقد شجعهم على ذلك الزور ما بدا فى أفق القرية من غليان يحمله المصريون فى قلوبهم ضد السعوديين ومن انتقام يرنو إليه السعوديون لكل ما هو مصرى.. وتحولت الواقعة من محاولة تحرش جنسى ـ قام بها مدير سعودى ضد طبيبة مصرية ـ إلى تحرش ـ قَبَلّى ـ بين أبناء البلدين.. ولم يكن ـ إزاء تصاعد هذه المعركة ـ فى استطاعة شهودى اللجوء إلى قول الحق فقد تُطال رقابهم قبل رقبتى..

لقد التمست لهم العذر وأنا أتقبل بينى وبين نفسى أسوأ الاحتمالات التى سأواجهها وهى فصلى من العمل وترحيلى إلى مصر ولم يدُر بَخَلدى أن غريمى ستمتد وقاحته إلى الانتقام منى بتلفيق تهمة شنعاء لزوجى « رحمى » المسكين فى عيادته..

لقد كانت التهمة من السذاجة والفجاجة بمكان.. تهمة كانت تشير فى تخطيطها وتنفيذها إلى البدائية وافتقاد روح المنطق، ومع ذلك فقد هرْوَلت الشرطة إلى العيادة لإنقاذ تلك الأم السعودية التى تعرضت لتحرش جنسى من الطبيب المصرى وهى تعرض عليه طفلها المريض..

لقد بدا من سير الأمور أن القبيلة قد اجتمعت فى محاولة يائسة ومكشوفة لمسح العار الذى لحق بها من جراء ما جرى لولدهم من مهانة وفضيحة على يد طبيبة مصرية.. وتكاتف الجميع لإزالة هذا العار بإلصاق عار مماثل على شرف زوجى وتاريخه الذى يعرفونه جيدًا.. ولم تعلُ همسات السعوديين أنفسهم عن حد أفواههم وهم يدينون تلك الخطة الحمقاء المكشوفة التى دبرتها قبيلة هذا المدير الشاب وساعدتهم فيها الشرطة..

كنت فى سجن النساء أرنو إلى أخبار «رحمى» بروح يقتلها اليأس والقلق . . وأرنو إلى من يساعدنى فى إبلاغ سفارتى بمأزقى الأسود . . وأرنو إلى من يساعدنى فى الاتصال بأخى « عمرو» فى قريته البعيدة . . وأرنو إلى أملٍ أتمناه أن أخرج من هذا السجن بشرفى سليمًا بدلاً من أخرج منه قاتلة أو مقتولة . .

كنت أسمع عن القهر . . وأمر على هذه الكلمة مرور الكرام . . وأعرف أنه الظلم مكثفًا . . ولا ألمح فارقًا بين الكلمتين ، فالتعدى على حريتك وإنسانيتك فى سرقة دورك فى طابور شباك التذاكر هو البداية لسرقة دورك فى الحياة . . وأن صمتك عن الحفاظ على حقك فى طابور التذاكر هو الخطأ الذى سينمو داخلك حتى تأخذك قناعة الصمت بتجاهل كل حقوقك فى طابور الحياة . . لقد أصبح الإنسان المتحضر فى نظر فلاسفة العالم الأول هو الإنسان الذى يؤمن بحقوقه ومعتقداته ويدافع عنها . . وهذا هو الفارق الذى يميزه فى نظرهم عن الإنسان الهمجى . .

لا أعتقد سوى أننى كنت إنسانة متحضرة عندما دافعت عن حقوقى . . ولقد أصبحت أرثى لشهودى الذين لم يدافعوا عن حقوقهم فى إبداء شجاعة يحث عليها دينهم فى التمسك بقول الحق وتجنب شهادة الزور . .

كانت أيامى السوداء ولياليَ الظلماء فى سجنى المنفرد هى مساحتى المتاحة قسرًا للاختلاء بنفسى وتأمل الدنيا . . والناس . . والأشياء . . وتذكرت عم «سالم» ذلك الإدارى العجوز وهو يحنو علىَ مُستقبلاً امتعاضى وشكواى من هذا الشاب المقزز ؛ ثم تذكرته وهو يُحنى رأسه خزيًا أمام المحقق فقد رأى نفسه متورطًا رغما عنه فى شهادة كلها زور وبهتان مدعيًا أننى لم أشْكُ له كما أفدت فى أقوالى مع الشرطة . . ثم رحت أتخيل كم الجسارة والفُجر الذى يتيح لسيدة بدوية القدرة على تمثيل دور مرسوم لامرأة وقعت تحت وطأة تحرش جنسى من طبيب مصرى . . ثم رحت أعيد النظر فى كل ما اتفقت فيه مع نفسى من إيمان بتمتع بُسطاء الجبل وسكان الصحراء بقدرٍ من البراءة والعفوية والتلقائية يزيد كثيرًا عن مثلهم فى المدن . .

لقد قاموا بحملتهم ضدى متمثلة فى إنهاء عقدى وترحيلى دون النظر إلى عينىَ الدامعتين من أجل زوجى المسجون . . ولا إلى صراخى الذى يشق السماء هلعًا وأنا

ألقى بتوسلاتى تحت أقدامهم حتى يسمحوا لى برؤيته قبل الرحيل . . لقد همس لى أحد المصريين قائلاً: إنهم لن يمكّنوك من رؤيته على حالته الراهنة، فقد صبوا جام غضبهم عليه عندما وضعوه فى مكانك المفترض وعذبوه هو بعد أن منعتهم رجولتهم من التصدى لتعذيب امرأة . . ذلك أن «رحمى» تجرأ فى لحظة دفاعه عن شرف زوجته وبصق فى وجه كبيرهم . . ثم فى لحظة دفاعه عن شرفه بصق مرة أخرى فى وجه زوج المجنى عليها تلك البدوية المتآمرة فى تمثيلية التحرش بها . . لم يكن رحمى يملك تعبيراً عن رأيه بشكل عملى سوى إطلاق لعابه الجاف قذائف فى وجوههم وهو المكبل بالقيود إلى ظهر مقعده الحزين . .

لحق بى بعد شهور منكسراً حزينًا صامتًا زاهدًا فى الدنيا معتزلاً الناس كارهًا الطعام والشراب لا يطيق أن يقرأ صحيفة . . ينفر من الراديو والتليفزيون . . يستمع بلا مبالاة إلى نتاج رحلاتى اليومية التى لم تنقطع ـ حتى بعد وصوله ـ فيما بين وزارة الخارجية ومختلف الصحف والمجلات التى أصبو إلى أن تحمل إحداها شكواى إلى الملك لعله يعلم أن رايته الخضراء التى تشير إلى جوهر الدين والإسلام كدستور يحكم رعاياه ما هى إلا قماشة تهفهف على وجوههم بهواء الرضا وهم يفيقون من نومة الغفوة والجهالة وتجشُّؤ وجبات الظلم العاتى . .

فشلت كل محاولاتى الطبية والنفسية والشخصية فى الخروج برحمى المسكين من دائرة الكآبة والاكتئاب . . وكان احتضانه للمصحف الشريف فى آخر أيامه يحمل لى كل الأمل أن تهدأ نفسه من غضبها المكتوم وتشفى روحه من يأسها الجاثم فى حناياها الجريحة . . وعندما كنت أشاهد دموعه التى تسيل مع كلمات القرآن أظن فى داخلى أنها مشاعره الحاقدة على ظالميه آخذة فى التفكك والذوبان والانحدار عبر مآقيه كدموع تسقط ويسقط معها جبل الهم والاكتئاب . .

كنت واهمة معتقدة أنه سيتمكن من جلب الرحمة إلى نفسه وروحه بعد أن غابت عنه رحمة الناس . . إلى أن أتت القشة التى قصمت ظهر البعير متمثلة فى زوج أخته ومعه أخته الوحيدة عندما استوليا على كل رصيده فى البنك ظنا منهما أنه إنما سيعود إلى مصر فى صندوق خشبى، فتسابقا نحو الحصول على أمواله قبل أن تصل إليها شرعية التوريث . .

كان قد نصحنى بعمل المستشفى وتزويده بمشروع خيرى أقيم فيه داراً لتربية الأيتام تكون كل تكلفتها من أمواله . . ولما فشلت فى إثناء زوج الأخت عن المضى فى غيه وإعادة الأموال المسروقة إلى صاحبها فر منى وتوقف عن زياراته المتباعدة هو وزوجته التى راحت تستمتع بمدخرات شقيقها متكئة على عديد من التبريرات الواهية من أنها إنما حصلت على حقوقها لعلمها أن شقيقها لا يملك الذرية التى ترثه . . وأنها أولى من دار للأيتام ؛ إذ أنها ستربى بهذه الأموال نفوساً من دمه ورجالاً سيدينون لخالهم بمباهج العز الذى سيتمتعون به . .

مات رحمى متسربلاً بحزنه وغضبه على قومه من العرب والمصريين . . ولكنه لم يتركنى وحيدة عندما ترك معى كل تلك الرؤى الجديدة التى صرت أضعها فى قلبى وعقلى وأنا أواجه الدنيا والناس بعد رحيله . . وجندتُ نفسى وبعض الأقلام الشريفة وبعض المحامين الشرفاء ففضحنا قبيلة الطواغيت اسما اسما وجعلنا قصة رحمى الذى لم يُرحم على كل لسان . . وأصبحت واقعة سرقة أمواله وصمة فى جبين أخته وزوجها . . وكانت قيادتى لتلك الحملة المخططة لرد الاعتبار المعنوى لفقيدى العزيز هى بداية دخولى إلى عالم الفكر والصحافة والتعرف على كثير من النفوس الشريفة التى تمضى قدمًا فى طريق الحق والشرف متبنّين قضيتى بعد أن ساندتهم بعض الأقلام والعقول السعودية الشريفة وتصدوا لقولة الحق وسط هذا الزخم المتعالى من القبح والزيف والنفاق والمقايضة . . «خذ ذمتى . . وأعطنى مالاً» . . ذلك الشعار الصامت الذى يغذى المعاملات السفلية أحيانًا فى عالم الصحافة . .

لقد أصبح رحمى أبًا لعشرات الأطفال الذين ينظرون إلى صورته الوضيئة بابتسامته المشرقة فى مدخل دارهم الدافئة . . دار رحمى لتربية الأيتام . . وكأن رحمى الطيب كان ينقذ أموالى عندما لم يخلطها بأمواله حتى أتمكن من تحقيق أمله المتصاعد فى آخر أيامه بعمل هذه الدار . .

أما المستشفى الصغير الذى يأخذ من وقتى جانبًا فى إدارته فقد جعلته فى خدمة الفقراء بالقدر الكبير الذى يحمل رضائى طالما أننى أعيش على ما يتوفر لى من إيراده . .

ما الذى أريده من هذه الدنيا سوى أن أكون أنا؟ . . لم يعد يعنينى من حياتى شىء سوى أننى قد تعرفت على نفسى بعد أن عرفت حقيقة الحياة . . ولم يعد يعنينى أن تمتلئ حياتى بأحداث جديدة وأشخاص جدد بعد أن كفانى ما امتلأ به قلبى من فرح وسعادة وأمل وألم وحزن وقهر وحب وموت . .

كثيرًا ما أرفع سبابتى فى الهواء وأقبّلها لأنها أتت لى فى غفلة منها ومن الزمن بفارس جميل اسمه «رحمى» . . مر على حياتى كالسحابة الممطرة فأثراها بالأمل والألم، وغاب عنى ولكنه دائمًا يجيب على كل تساؤلاتى . . حتى بعد موته . .

ـ آلو . . الخطوط السعودية . .

ـ تحت أمرك . .

ـ من فضلك عاوزه أحجز مقعدين . .

ـ آسف . . مفيش غير مقعد واحد . .

ـ والمقعد الثانى؟ . .

ـ استولى عليه واحد ظالم . . وقتل صاحبه . .

إننى الآن أسمعه ينخرط فى بكاء صامت . . تُرى هل يبكى من أجلى وأنا بعد رحيله أجلس على مقعدى وحيدة؟ . . أم يبكى على مقعده الذى ضاع منه بعد أن كان سعيدًا بجوارى؟ . .

* * *

(٧)

الروح التائهة فينا

كنت وأنا أضع يدى على قصة راوية عبد العظيم ـ هذا الملاك الذى هبط على جيرتنا متسربلاً بالحزن والجمال ليقيم مستشفاه الصغير وداره للأيتام على مقربة من منزلى ـ يزداد قدرها عندى يومًا بعد يوم . .

كان الصمت والشرود والحزن الغافى بين عينيها علامات يحار المرء فى تفسيرها وهى جالسة على مقربة من موقع العمل تحت مظلة تحميها من الشمس وبيدها كتاب أو صحيفة . .

لم تستجب بسهولة لدعواتنا لها ـ نحن الجيران ـ حتى تُشرِّفنا فى منازلنا . . كانت دعواتنا تصل إليها عبر زوجاتنا اللاتى كن يجالسنها بعض ساعات النهار يقدمن لها ولعمالها أكواب الشاى وزجاجات المياه الغازية فتتقبل كرمنا شاكرة معتذرة عن قبول دعواتنا إلى الطعام بعد أن جندت طباخًا فى ركن من الموقع يعد لها ولعمالها الطعام اللازم . .

لم يكن من السهل فض أغوار غموضها وجذبها إلى ثرثرة الأحاديث رغم ذلك المتسع من الوقت الذى تختتمه آخر النهار باستقلال سيارتها وهى تغادر المكان فى صمت مؤدب ودماثة خلق واضحة محيية الحضور بوداع راقٍ . .

كانت كل أيامها واحدة تلك التى تقضيها فى مراقبة العمل . . حيث لاحظت أن زوجتى لا تكاد تأتى بخبر جديد يضاف إلى أخبارها القديمة التى تأتى بها حول الدكتورة راوية صاحبة مشروع المستشفى . . كما أنها ـ كما تقول زوجتى ـ لا تكاد

تسأل سؤالاً واحداً عن شيء ما يثير فضولها حول الناس والأشياء فى تلك المنطقة التى اختارتها لإقامة مشروعها . .

أما عندما تجرأت زوجتى فى إحدى زياراتها لها واصطحبت معها بعض مؤلفاتى لتهديها إليها فقد كنت أشفق عليها من الحرج ؛ إذ كان من اللائق أن أقوم بنفسى بتقديم تلك الهدية التى ـ وجدتها زوجتى ـ تليق بهذه السيدة لكثرة ما تراه فى يدها من كتب وصحف ومجلات . . حتى أنها كانت تشفق على نظرها من التعب والإرهاق المتواصل فى قراءة كل هذه الأوراق التى تملأ منضدتها . .

بعد أن قرأتْ كتبى لم تشأ ـ لفرط أدبها ـ أن تدعونى لمقابلتها قبل أن أدعو نفسى ذات مرة لهذه المقابلة . . فقد ظهر لى أنها كانت ترنو إلى مثل هذه المقابلة بعد التعرف على شخصى والتعرف على فكرى من خلال ما أكتبه . . ومن خلال ما قرأتْه لى . .

سألتنى فى اللقاء الأول : ما هو الكتاب الجيد فى نظرك يا أستاذ؟ . .

قلت لها : هو الكتاب الذى يجبرك على الجلوس إليه حتى الانتهاء منه . .

هزت رأسها خفيفًا وغاب نظرها بعيدًا ثم قالت :

ـ قولك مضبوط . . ولكنى أراه يعتنى بمسألة شكلية بحتة!!

سألتها : ماذا تقصدين؟ . .

أجابتنى : عندما قدر لى أن أهرب إلى القراءة . . وأتغلغل فى عالم الكتب رحت أكتشف أشياء عجيبة حول الكتب نفسها وكأنها كائنات آدمية تعيش معك . . واكتشفت أن قيمة الكتاب تنبع من شعورك نحوه بعد قراءته ، فهناك كتاب يقول لك ما كنت تعرفه بالفعل . . وكتاب استطاع أن يعبّر تمامًا عن كل ما فى نفسك . . وكتاب قال لك بالضبط كل ما كنت تريد قوله . . وكتاب يكون تأثيره فى نفسك هو أنك وجدت فيه نفسك . . وكتاب جذب منك أفكاراً بعد قراءته لم تكن موجودة فى نفس الكتاب . . لا أدرى : لماذا أحس دائمًا أن الكتب كائنات آدمية تعيش معنا وتتنفس وتمرض . . وتموت . .

أعجبنى هذا التحليل الذى لم أحاول الوصول إليه ذات يوم . . أو لم أهنأ بالتوصل إليه ولو بمحض الصدفة . . وقبل أن أبحث لها عن ردٍّ حول هذا المنطق التحليلى

وجدتها تتجه إلى ما تريد قوله، فقد كان ما سبق لها من حديث لا يعدو أن يكون مقدمة لما تريد قوله فعلاً . .

ـ لقد قرأت لك بعض القصص القصيرة، وتعجبت أن تكون تلك هى أفكارك التى لا تختلف كثيرًا عن أفكارى . . كنت أقرأ هذه القصص ولدىّ شعور غريب بأننى أعيد قراءة شىء ما كتبته بنفسى . . معنى هذا أننى لو كنت كاتبة لما خرجت بعيدًا عن إطارك وأنا أعالج هذه الموضوعات . .

ثم راحت تضرب مثلاً بالموضوعات التى تعنيها :

ـ قصة البنت الفقيرة الجميلة المحطمة ذات العشرين ربيعًا التى باعوها فى صفقة الزواج المتكررة لعجوز عربى تعدى السبعين عامًا . . هل أنت تشير هنا بإصبع الاتهام إلى الفقر؟ . . أم إلى القهر؟ . . أم إلى عودة النخاسة؟ . .

ـ ربما إلى كل هذا جميعًا . .

ـ عمومًا أنت نجحت فى توصيل رسالتك عبر اللقطة التى رأت فيها الفتاة نفسها مرسومة فى نصف البرتقالة التى عصرتها لزوجها، ثم ألقت بها فى سلة المهملات مع باقى البرتقال المعصور . .

– أشكرك . . هذا فعلاً ما سعيت إليه . .

ـ أما قصة الشاب الفواعلى الذى غفل عن مأساة ساقيه اللتين تحطمتا تحت الجدار المنهار . . وراح يتذكر بهلع طعام الغد : من سيأتى به لأولاده؟ . . هل تشير هنا إلى ضعف إيمانه؟ . . أم قوة أبوته؟ . . أم شدة خوفه على رزقه؟ . .

ابتسمت وقلت لها : ربما أشير إلى كل هذا جميعا . . أيضًا . .

قالت بهدوء : لا . . أنت تشير إلى الهلع الذى يعيش بداخلنا ـ حتى نحن الأغنياء ـ من فكرة الفقر . . لأنك رصدت نفس الهلع عند هذا الشاب حتى بعد أن تسلم مكافأة مجزية من صاحب العمل . . للأسف . . الخوف من الفقر يجعلنا نقهر أنفسنا . . ونقهر الآخرين . .

سألتها : يبدو لى أنك تطاردين تلك القوة الغاشمة التى اسمها القهر؟ . .

أجابت : هى بالفعل ـ كما قلت أنت ـ كما قلت أنت قوة غاشمة . . تجعلك تخاف من قهر الفقر فتسرق الأموال ، ومن قهر رئيس التحرير فتكتب ما يحبه هو لا ما تحبه أنت . . وقهر رئيس الشرطة فتشهد بالزور الذى يتمشى مع مطلبه ولا يتمشى مع مطلب الحق الذى تحس به . . القهر يقف لنا فى كل مكان كرأس الجمل الذى يطارد الناس ليلاً فى قصة يوسف إدريس الشهيرة . .

قلت لها : ما رأيك يا سيدتى فى رجل جنّد نفسه وقلمه وفكره فى تسجيل علاقة المصريين بالاحتلال والقهر والعبودية منذ فجر التاريخ . . ظل يفعل ذلك طيلة خمسة عشر عامًا إلى أن جمعه فى كتاب؟ . .

هزت رأسها رافضة . .

ـ لا يوجد مثل هذا الرجل الآن . .

ـ إنه موجود . .

ـ وهل كتابه موجود فى السوق؟ . .

ـ هو الآخر موجود . .

ـ ومن سيقرأ هذا الكتاب؟ . .

ـ من يريد أن يقرأه . . فليقرأه . .

ـ لن يجد من يقبل على كتابه . .

ـ لماذا؟ . .

ـ لأنه يبيع لنا البضاعة التى نملكها . . كيف يأخذ منا ويعطينا؟ . . كيف يبيع الحقيقة للنفوس التى عذبتها الحقيقة؟ . . إنه كالممثل الكوميدى الذى يُضحك الناس على كمدهم بتذكرة مسرح من جيوبهم .

أخذنى الصمت طويلاً وأنا أواجه هذا الطريق المغلق بالتشاؤم واليأس . . وذلك المنطق المفعم بالكآبة ورفض الواقع رفضًا يرسخ جثومه على النفس والقلب . .

ـ ما هذا الذى أسمعه منك يا دكتورة؟ . .

ـ هو الذى تسمعه منى . . يا أستاذ . .

ـ هل هو اليأس؟ . .

ـ لا . . إنها الحقيقة . . الحقيقة التى لا يجب أن تبحث عنها فى مكان آخر . . فتفعل مثل جحا الذى سقط منه قرش فى الظلام فراح يبحث عنه فى مكان آخر به نور . .

ـ وماذا تقول الحقيقة؟ . .

ـ الحقيقة أنت تعرفها وتعيشها وتتنفسها، خصوصًا أنك كاتب ومثقف . . ولكن يبدو أن الأنف التى تعيش قريبة من بئر المجارى جبلت على الاتساق مع هذه الرائحة حتى عايشتها وآمنت بها وربما أحبتها . . ودائمًا لا يحس بمأساتك إلا ضيفك القادم من بعيد . . الذى إذا حاول أن يواسيك على سوء معيشتك نال استغرابك؛ لأنك لا تحس بشىء مما يقوله . .

ـ وما هى الحقيقة التى سيواسينى ضيفى على سوئها؟ . .

ـ الحقيقة التى يعرفها هو من أنه ضيف ثقيل . . ضيف قادم علينا ليجلس على قلوبنا رغم أنوفنا . . أمريكا . . أمريكا هى التى تشير لنا الآن على العفن الذى يحيط بنا . . وتنبهنا على مساوئه . . ومدى ضرره بصحتنا وعافيتنا : القومية . . ويجب أن نرهف السمع لأقوالها الصادمة . . ثم نستعد لتلقى اقتراحهم بالعلاج . . هذا لأنهم سيجلسون عندك . . وبما أنهم لا يطيقون الروائح الكريهة، فسوف يتطوعون بإزالتها قبل جلستهم الطويلة . . الطويلة جدًا . .

ـ كيف أرهف السمع لقول ناصح يعقبه حل ناجع لمشاكلى من دولة لا تسعى إلا إلى استعبادى . . أليست هى أمريكا التى لا تسمع إلا صوت نفسها؟ . .

ـ أجل . . إنها أمريكا التى يحبها نصف شعبك ويكرهها النصف الآخر، من أحبها هو ذلك الذى انبهر بها . . ومن كرهها هو ذلك الذى ازدرى قيمها اللعينة . . ولا تنس أننا نستجدى رضاها جهرًا . . ونصب عليها اللعنات سرًا . . إنها حالة جديدة من الحب الممزوج بالكراهية . . ولا تنس أنك ـ فى الواقع الحقيقى الذى تحكمه طبائع الأمور ـ

تكره أحيانًا الرجل الذى يشير لك على عيوبك؛ لأنك فى عز اختيالك بنفسك المريضة أوهمت نفسك أنك بلا عيوب.. وربما راح بعضنا يمارس ضد هؤلاء الناس فعل الكراهية؛ لأنهم وضعوا أيديهم على حقيقتنا المضحكة.. لقد وصلوا إلى التشخيص الحقيقى لأمراضنا، ولو كنت سويًا فلتعترف بالتشخيص حتى يسهل لك البحث عن الدواء..

ـ من المؤكد أنك وضعت يدك على تشخيصهم لنا.. أقصد لأمراضنا..

ـ للأسف هم يقولون عنا ما نعرفه عن أنفسنا ذلك الشىء الذى لم نجرؤ أن نطالب به حكامنا.. خذ منى كل تلك النقاط التى سجلوها ضدنا وحاول أن تناقشنى فى كل نقطة على حدة..

هم يقولون عنا إننا متخلفون لا نملك الحريات المدنية والسياسية.. كما أننا متخلفون فى التنمية الاقتصادية؛ لأننا حتى الآن لم نتعانق مع تكنولوجيا الغرب، ونفتقر إلى الديناميكية اللازمة لمواجهة تحديات العصر ـ ألسنا كذلك فعلاً؟..

ـ أجل نحن كذلك.. فعلاً..

ـ وهم لا يعيبون على إسلامنا فى شىء قدر ما يعيبون علينا خصام فكرة الحريات الدينية ظنًا منا أنها ستكون على حساب قيمنا الإسلامية..

ـ فعلاً.. نحن نخاف الخلط فى هذا الأمر الدقيق.

ـ ولماذا تلجأ إلى الخوف وأمامك تجربة اليابان التى تفاعلت مع الحضارة الغربية وحافظت على تفردها وخصوصيتها.. لقد حاولت أمريكا تذويب الحرف اليابانى فى الحروف الإنجليزية وفشلت.. حاولوا إلغاء طقوس الإمبراطورية القديمة وفشلوا.. لقد تمسك اليابانيون بروحهم وهم آخذون فى صنع التفوق تدريجيًا على تكنولوجيا الغرب..

ـ.....

(لذت بصمت المتأمل لهذه الحقيقة المعروفة فواصلت هى سردها)

ـ ويقولون عنا إننا ـ كشعوب ـ خسرنا الانضواء تحت أساليب الحكم السائدة فى الغرب لأسباب تتعلق برغبة الحكام ومزاجهم، فالتقسيمة ذات الألوان المختلفة فى خريطة الحكم تشير إلى جمهوريات تضع الدستور حسب طلب الحاكم.. وجمهوريات وممالك تكرِّس الجهل فى نظم تعليمها.. وبلدان تتمسك بالعصبية العشائرية والطائفية.. وبلدان بها أحزاب على الورق مكملة للصورة الديموقراطية الزائفة.. وبلدان بها أنظمة برلمانية تكيل بمكيالين.. وأنظمة تسن القوانين ذات الأنياب التى تستخدمها عند الحاجة.. وأنظمة تؤله الحكام حتى أن صورهم فى الشوارع تزيد عن أعداد المارة.. هم يقولون ذلك، وتلك هى الحقيقة التى تؤكد أن كل الأنظمة العربية تكرس الفقر والبطالة والفساد والمحسوبية، وأنها تحمل لافتات ضخمة بلا كيانات حقيقية.. أليس هذا صحيحًا؟..

ابتسمت فى مرارة:

ـ صحيح.. مائة فى المائة..

ـ إنهم الآن يتأملون بغيظ ما طالهم من ضرر نتيجة هذه المساوئ فى أنظمة الحكم على اختلاف مشاربها.. فلقد توصلوا إلى أن الفساد والظلم وغياب العدالة الاجتماعية وسّعت الهوة بين الأغنياء والفقراء، فتعالت نزعات العنف والإرهاب عند الشباب المظلومين الذين نشئوا فى تربة صالحة لتوليد الإحباط واليأس، خاصة مع ازدياد معدلات البطالة.. وكان الإرهاب أحد هذه النتائج السيئة التى تتصدى لها أمريكا والغرب بكل قوتها، وسوف يكشف التاريخ أنهم حبكوا مؤامرة ١١ سبتمبر كذريعة يعلنون بها للعالم أنهم قد عثروا على عدوهم الجديد.. العدو الذى أعطوا له اسمًا خاصًا.. هو الإرهاب.. وهم الآن يديرون حوله حربًا جديدة لعلها الحرب العالمية الثالثة.. وتلك هى مصيبة الأمريكان فى إدارة شئونهم ورأسماليتهم ومصالحهم بالحفاظ على فكرة الحرب والإبقاء عليها كهدف يسعون إليه تحت لافتات بريئة ومفتعلة.. ولما لم يجدوا دولة بعينها يواجهونها.. اخترعوا حالة بعينها جعلوها هى العدو الجديد لينفذوا منه إلى كل الدول التى يتلمظون لالتهامها.. وقد وضع رئيسهم أسماء هذه الدول حسب الأولوية الطافية على سطح الأحداث بادئًا بأفغانستان، ثم ها هى العراق لحقت بها.. واعلم يا أستاذ أنه من الممكن أن تكون

مصر والسعودية فى القائمة . . ولا مانع أن تكون فى ذيلها بعد تسوية الحسابات مع سوريا وليبيا . . هناك تعديل هام يا أستاذ فى خريطة المنطقة . .

ـ تقصدين «سايكوس بيكو» جديدة . .

ـ أو «سايكوس بيكو» على الطريقة الأمريكية . .

تأملت ما أوصلتنى إليه راوية عبد العظيم من رأى ظهر لى أنه لا يختلف كثيرًا عن رأيى اللهم فى بعض النقاط أو التفاصيل الصغيرة التى ألمح إمكانية الاتفاق بيننا بشأنها فيما لو امتد بنا النقاش أو زاد إبحارنا قليلاً فى هذا المحيط الهادر ، محيط السياسة الذى علت أمواجه وهاجت وماجت بفعل رياح التغيير التى تهب على العالم . .

لم يكن ما تعرضَتْ له راوية عبد العظيم من نبوءة صادمة للحال الذى تكون عليه مصر والمنطقة يختلف كثيرًا عما تعرض له أحمد منصور من قول صادم للحال الذى كانت عليه مصر قبل ذلك ، كل ما هنالك أنها استخرجت نبوءتها من تحليل الخطاب السياسى الذى لا تفتأ أمريكا تبرز لنا ـ بين الحين والآخر ـ بعض فقراته . . أما أحمد منصور فقد استخرج خبيئته من بطن التاريخ . . ولم يشأ أن يؤكد لنا فى نهاية كتابه ما يتوقعه من أن التاريخ سيعيد نفسه ، أو يلفت أنظارنا بأسلوب أدبى قائلاً إنه نفس التاريخ الذى سنعيشه من جديد عندما يدخل علينا مرتديًا زى العولمة طالبًا منا أن نلقى جانبًا أرديتنا القديمة وأثوابنا البالية . .

كنت قد ركنت إلى هذه التأملات التى طالت معى بطول غيابها عنى عندما انصرفَتْ إلى مهندسها وراحت تتجول معه فى الموقع الزاخر بالعمل والحركة وأنا أشاهدها من بعيد بنظراتى الشاردة وعقلى المنصرف عنها إلا من متابعة شبحها المتحرك بلا تركيز على ما تفعله ، فقد كان تركيزى فى ذلك التطاحن الذى يدور فى عقلى حول ما فعله بى حديثها . .

جاءت بعد جولة المرور وعلى فمها ابتسامة فعرفتُ أن ابتسامتها تلك إنما لاحت عليها وهى ترانى غارقًا فى التفكير . .

وما إن جلسَتْ حتى بادرتنْى بسؤالٍ غريب :

ـ هل كنت تتابع قصة بيل كلينتون مع فتاته؟ . .

ـ ومن فى العالم لم يكن يتابع مهزلة مونيكا؟ . .

ـ لا . . لا أقصد مونيكا . . أقصد «بيلاجونز» التى اتهمته بالتحرش الجنسى . .

ـ وتلك أيضًا تابعتها ، وتأملت كم كانت ستكون القشة القاصمة لظهر أذكى رئيس أمريكى . . ماذا تقصدين بسؤالك؟ . .

ـ أقصد . . هل كان من الممكن « لبيلا » هذه أن يكون اتهامها محض افتراء، وأنها مدفوعة إلى ذلك بأيدٍ خفية تصبو إلى النيل من الرئيس لتحطمه؟ . .

ـ لا . . لا يمكن . . فهؤلاء القوم يملكون القدرة العالية التى تمكنهم من البحث والتنقيب ومعرفة الحقيقة . . وأنها لا يمكن أن تفلت بكذبتها فيما لو كانت كاذبة . .

ـ وهل هم ينبذون الكذب تفاديًا للعقاب فقط؟ . .

ـ أنا أرى أنهم وصموا هذه النقيصة بالعار الشديد حتى أصبح مجرد اللجوء إليها أكثر إزعاجًا لصاحبها من اللجوء إلى القتل . .

ـ إذن، فأنت متفق معى على سلامة الأرضية التى سنقيم عليها تلك المقارنة بين تلك الفتاة الأمريكية ذات الجوب القصير للغاية، وذات الصدر الذى يكاد يكون عاريا، وبين تلك السيدة السعودية التى لا يبدو من جسدها سوى عينين تلمعان خلف تلال من الأردية التى توارى بها جسدها . . فالأولى مكشوفة الجسد مستورة النفس . . فلماذا تكون الثانية عارية النفس رغم حرصها على ستر الجسد؟ . . .

لم أكن قد عرفت بعد قصتها الأليمة مع السعوديين والتى راح فيها زوجها ضحية لكذبة شائنة تصدت لإطلاقها سيدة سعودية مسلمة مستجيبة لتحريض رخيص من ذويها . . وراحت د. راوية تكمل أمثلتها التى تحمل نبض المفارقة . .

ـ لو قلنا إن هذه السيدة السعودية كانت مغلوبة على أمرها، وإنها لم تفعل أى جديد، وقد جبلت على الانقياد الأعمى لسيدها ـ الرجل ـ فماذا تقول عن سيدة مصرية متعلمة تعمل بالمحاماة وزوجها يعمل بالاقتصاد ليتحولا بين يوم وليلة إلى

عصابة وقاما بالسطو على كل مدخرات رجل مريض وحولوها إلى حسابهم؟ . . هذا الرجل المريض لم يكن سوى شقيق هذه المحامية . . (لم أكن قد تعرفت بعد على سرقة مدخرات زوجها المرحوم رحمى) . .

ـ أراكِ تؤسسين قواعد جديدة لإدانة من نوع جديد . .

ـ لا أساس، ولا قواعد، ولا إدانة . . ولكنه سؤال: هل نحن متحضرون؟ . . وما هو الدليل على أننا متحضرون؟ . . وأرجوك لا تكرر أمامى مسألة السبعة آلاف سنة حضارة حتى لا أصاب بالغثيان . .

ـ أجل . . أجل . . لك الحق . . تلك العبارة التى استهلكناها والتى أهلكتْنا . . أليس من الملائم أن نتفق أولاً على تعريف التحضر؟ . .

ـ لقد مررت على كثير من التعريفات ولم يعجبنى سوى ذلك التعريف البسيط العميق: الحضارة هى رقة التعامل مع الإنسان الآخر . . ويجب أن تسألنى من أين أتيت به؟ . .

ـ من أين؟ . .

ـ من على جدران معابدنا الفرعونية . . تصور؟ !! تصور أننى اكتشفت أن رقة التعامل لا يجب أن تكون فى نظرهم مع الإنسان فقط . . بل مع الحيوان والنبات . . فأجدادنا كأول من آمنوا بالتوحيد والثواب والعقاب ومحاسبة الميت كانوا يجهزون هذا الاعتراف ليلقوه أمام القضاة فى العالم الآخر «أعترف أنى لم أؤْذ إنسانا . . أو أقهر حيوانًا . . أو أعطّش زرعًا . . فقد كنت لا أنسى أن أسقى الزروع . .» . .

فكم سنحتاج من الوقت حتى تتحضر المرأة البدوية السعودية وتقتنع أن أذى العورة لن يواريه الحجاب؟ . . فالأذى يصدر من داخل النفس . . وكم سنحتاج من الوقت حتى تتحضر المحامية المصرية السارقة وتعلم أن طقوسها حول أضرحة الحسين والسيدة زينب لا تعنى سوى إسدال حجاب كحجاب البدوية يستر الكذب والنفاق الاجتماعى؟ . . ومع هذا فالغرب حزين . . يعصر مناديل الدموع من أجل المرأة العربية المسلمة، فهى فى نظرهم ذلك الكم المهمل المقهور المستعبد من الرجال وأجهزة الحكم على حدٍّ سواء . . ولذا فقد رصدوا لها بندًا فى خطة إصلاح أحوالنا المائلة . .

قررت أن أتخذ معها الحوار العملى عندما أبادلها الرأى فى كل ما قالته لى . . والذى لم يخرج كثيرًا عن نطاق آرائى وأقوالى . .

فتوجهت إليها قائلاً :

ـ دكتورة راوية؟ . . أخشى أن تكونى فى عز غضبك قد صرفت النظر عن طلب نسخة من كتاب صديقى ذلك الذى أرّخ فيه لقهر المصريين ومحاولة سحق هويتهم تحت سنابك الفرس والرومان والإغريق والعرب والمماليك والفرنسيين والإنجليز . . يبدو لى بعدما تعرفت على هويتك الآن أن هذا الكتاب هو كتابك . . لأنه يحمل مواصفات الكتاب الحق كما يراه (فرانز كافكا) الذى لا يعترف إلا بالكتاب الذى يقضه ويوخزه . . وعلى حد تعبيره : الكتاب/ الفأس التى تهشم البحر المتجمد فى داخلنا . . أو الكتاب الذى يوقظنا بخبطة على جمجمتنا . . فهذا الرجل لا يحب الكتاب الذى يجعلنا سعداء . . بل يحبه إذا سقط علينا كالانتحار . . فدعينى أحمل لك نسختك بعد أيام لثقتى أنك ستضعينه فى نطاق الكتب التى قمت بتصنيفها لى فى بدء الحديث ، وغالبًا ما سيكون هو الكتاب الذى سيجذب منك أفكارًا جديدة بعد قراءته حتى إذا قال لك ما كنت تعرفينه بالفعل . .

ابتسمت فى أدب وحنو . .

ـ وهل كنت تظن أن حديثنا سينتهى قبل أن أطلب منك أن تدلنى على المكتبة والاسم والناشر حتى أمتلك نسخة لنفسى . .

ـ إذن ، فنحن متفقان . . ومبدئيًا فالكتاب اسمه (مصر . . الأم . .) حديث حول الثقافة المصرية . .

ـ والكاتب؟ . .

ـ صديقى الأستاذ أحمد منصور . . الذى أرى أن تسمعى رأيه وجها لوجه بعد أن تكونى قد فرغت من قراءة الكتاب . .

ـ وما فائدة المواجهة؟ . .

ـ لمزيد من الثراء الفكرى الذى أرى أنك تحرصين عليه . .

ـ وما فائدة الثراء الفكرى؟ . .

ـ أرى أنه إشباع للذات . .

ابتسمت وقالت متسائلة بإلحاح وكأنها تشاغبنى :

ـ وما فائدة إشباع الذات؟ . . ستقول إرضاء الذات . . وسأسألك . . وما فائدة إرضاء الذات؟ . . ولن تستطيع أن تجيب ؛ لأن الذات لن ترضى . . وأنا لن أرضى . . وأنت لن ترضى . . فالرضا هو الروح التائهة منا أو الروح التائهة فينا . . أحضر لى كتابك يا أستاذ ، وإذا كتبت عليه إهداء لى فليكن : «إلى فلانة : اقرئى هذا الكتاب . . لمجرد التسلية» . . فهذا ما سوف يحدث . . . سأقرؤه فقط . . لمجرد التسلية . . .

* * *

(٨)

إن قلت كلمتك .. لا تمض

ألمَّ بى حب جديد اسمه مفتاح الصاوى . . لم أتخلَّ منذ أن عرفته عن محادثته بالتليفون عدة مرات فى الأسبوع الواحد . . أو تحديد موعد سابق منى لزيارته . . أوتحديد موعد آخر منه لزيارتى . . فالزيارة الواحدة له لم تكن سوى جولة بين المتاحف والمكتبات . .

كانت مشاغباته الهادفة تضفى جوّا من الإشراق على حالة الود التى تسللت إلى وجدانينا . . ولم يُخف هو إعجابه بطبيعتى العفوية التى تتبادل المؤانسة مع الناس فى وقت قصير . . ثم يفخر بهذا العدد من الزيارات المتبادلة والتى حققناها فيما بيننا فى تلك الشهور القليلة . . وقال لى إنها تزيد عشرات المرات عن عدد الزيارات التى تبادلها هو مع أحمد منصور على مدى علاقتهما الممتدة منذ عشرات السنين . . ويطلق ضحكته العميقة المجلجلة هاتفًا :

– هذا لأن ابن منصور شخص «برّاوى» . . كالحمام . . خفيف القلب . . يطير فوراً لمجرد مرأى الناس . .

قلت له :

ـ والعجيب أنه فى صومعته يجلس محترقًا من أجل الناس . .

فيعيد هتافه متسائلاً :

ـ ولماذا لا تكون عزلته سببها الخوف من أن يحرقه الناس؟ . .

فأتساءل :

ـ وهل الناس يحرقون من يفكر فى مصالحهم؟ . .

فيجيبنى مسرعًا :

ـ هل نسيت ما اتفقنا عليه من قبل من أن الجمهور للسياسى هو قَدَرُهُ الجميل الذى يقض مضجعه؟ الجمهور هو العلقة الشافية التى تدفع العافية إلى جسمه المريض!!

عدت فسألته :

ـ وكيف ينال السياسى هذا الأرق الجميل وهذا الدواء المرير دون أن يقترب من الناس؟ . .

– لا تظن أننى أوافق ابن منصور على استسلامه لليأس ولسوء الحظ ؛ لأنه لم يجد لكلمته المكان المناسب أو الوقع الشديد . . فقد قال كلمته ومضى عملاً بحكمة ما قديمة . . وقد كان أوْلى به أن ينسى هذه الحكمة نفسها ضمن ما نساه من حكم أخرى كثيرة . . فابحث له أيها الأديب عن الحكمة المناسبة .

ـ آه . . لقد فهمتك . .

ـ لا يكفى أن تفهمنى . . بادلنى الرأى . . خذ من حديثى مسلكًا لحديث جديد . . هل يكفى الآن أن تقول كلمتك وتمضى؟ . .

ـ لا . . لم يعد هذا هو الشىء الكافى . . لأننا سنجلس جميعًا فى النهاية فوق تلال من الكلمات الواهنة . .

كنت أتبادل الحوار مع مفتاح الصاوى وأنا أعمل عقلى فى البحث عن الحكمة المناسبة . . وبما أنها حكمة تلك التى أصبو إلى إطلاقها، فلا بد أن تأخذ حظها من مواصفات الحكمة التى وصلتنا من الأجداد عبر فيافى الزمن متدثرة بالإيجاز الشديد والإيحاء الفضفاض والجرْس الشعرى . . وراحت تنهال من قريحتى بعض الكلمات التى تدور فى فلك واحد . . مثل «لا يكفى أن تعلن كلمتك . . قف حتى تجعلها مؤثرة» إنها عبارة طويلة . . لا تتسم بالإيجاز . . بها تحذير وأمر . . وربما تحمل بعض العنف . .

وأين هذا من الحكمة السابقة التى تدعو بكل الرقة إلى القول: «قل»؟.. صحيح أنها لا تأمر بما هو أزيد من القول، وهذا ما نرفضه، إلا أننا يجب ألا نتخلى عن نفس الرقة ونحن ننصح بشىء آخر يُزاد على القول.. هذا الشىء لعله التصدى أو المواجهة، ولكنه أبدًا لن يكون العنف.. ها هى صياغة أخرى تقترب منى... «قل كلمتك واضمن لها الحياة..».. لا... فذائقة المسلمين الدينية تحول بينهم وبين القفز على المشيئة الإلهية ولو حتى بكلمة.. ومن يضمن ـ حتى ـ خروج الكلمة من فمه قبل أن تخرج روحه من حلقه؟.. إذن، فتلك صياغة ثالثة: «قل كلمتك.. ولا تمض» أعجبتنى الصياغة فهتفت إلى مفتاح الصاوى:

ـ وجدتها يا مفتاح.. «قل كلمتك.. ولا تمض»..

ابتسم خفيفًا وقال:

ـ لا نريدها معارضة لحكمة الأجداد بشكل سافر، فلنجعلها مكملة لحكمتهم.. فهم يقولون «قل كلمتك وامض».. ونحن سنزيد عليها «.. إن قلت كلمتك.. فلا تمض..»

ـ هى أيضا تحمل شكل المعارضة..

ـ لا تنسَ أن دعوتهم إلى القول (قل كلمتك.. وامض) لا تحمل فى طياتها الإجبار على القول.. فهذه الدعوة سيختار بعض الناس قبولها.. والبعض الآخر ـ بل الكثرة منهم ـ سيهابون مجرد القول لينعموا بالأمان.. ونحن هنا نخاطب من تصدى للقول.. أى نخاطب من الناس الصنف الشجاع.. وندعوه إلى مزيد من الشجاعة.. فشجاعة القول واجبة.. وشجاعة حماية القول أكثر وجوبًا.. ومعنى هذا أنه لا يجب أن يطلق القول إلا من يستطيع حمايته.. معنى هذا أننا نبحث عن الحكيم الفارس.. أو الفارس الحكيم..

ـ هذا بالفعل التعديل الملائم.. والذى يجب أن يفهمه أحمد منصور..

ـ لا نريد لأحمد منصور أن يفهمه فقط، بل يجب أن يسجله تحت شعار حزبه..

ـ إذن، فأنت مقتنع معى بضرورة إحياء أفكاره..

ـ بل وإحياء فكرة حزبه . . هذا هو الوقت الملائم، فها أنت ترى ما يعترى العالم العربى من مخاض، فالجماهير نددت فى المظاهرات بكل ما هو موروث وعقيم ومتعفن وتطالب بالتغيير . .

ـ إذن، يجب أن نسهّل على أحمد منصور أمور التنفيذ . . لا يجب أن نغرقه فى الإجراءات المملة والرسميات العقيمة . .

ـ أوافقك على ذلك، يجب أن نمهد له الطريق ليقطعه مرتاحًا بلا تعرجات أو منحنيات أو عوائق . . ابحث عن الأشخاص الجديرين بهذه المهمة . .

ورحنا نصنع قاعدة لمثلث يعلو قمته أحمد منصور . . لعله الآن فى تهيؤ نفسى لاعتلاء تلك القمة ونحن نعمل على ترسيخ القاعدة . .

ـ نحن اثنان . . وسوف أنجح فى ضم إمام وراوية عبد العظيم لنشكل جميعًا القاعدة المطلوبة . .

صوب مفتاح الصاوى نظرة فاحصة إلى وجهى وهو يتساءل :

ـ إمام وراوية . . ؟ . . من هو إمام؟ . . ومن هى راوية؟ . .

ورحت أقص عليه قصة إمام . . ذلك الفتى المتخصص فى معالجة القلوب الهيدروليكية للمعدات الثقيلة . . وراوية تلك الطبيبة المتخصصة فى مسح الألم من قلوب اليتامى . . ومعالجة قلوب الناس . . وأفهمته أن إمامًا يؤمن بشخصية أحمد منصور من خلال معرفته به . . وأن أحمد منصور يضع إمامًا هذا كنموذج حى للمصرى المتحضر . . أما راوية فقد وضعت يدها على حقيقة تجربة أحمد منصور ومشروعه الغافى من خلال قراءة كتابه ومن خلال حديثى عنه . . وكلاهما ـ إمام وراوية ـ قالا كلمتهما ورضخا للقهر، ولم يبق فى قلبيهما سوى المعاناة والألم . .

قال لى : إذن، فأنت قادم إلى إيقاظ قلبين من سباتهما؟ . .

قلت له : أنا مهيأ لإيقاظ نصف القاعدة . .

سألنى : والارتفاع؟ . .

قلت له : أحمد منصور لن يرنو إلينا من برجٍ عاجى . . سرعان ما سوف يتفاعل مع القاعدة .

عاد فسألنى : إذن، فنحن خمسة . . هل هذا يكفى لعمل قاعدة تأسيسية للحزب؟ . .

أجبته مسرعًا :

لو كنا نصبو إلى إطلاق حزب يهدف إلى تحقيق الديمقراطية والعدالة وإحياء القومية المصرية، فلا يجب أن أقدم إجابتى إلا إذا اجتمع الخمسة اجتماعهم الأول باقتناع وحب . . يجب أن يقدم كل منا إجابته . . كيف سنكون؟ . . وكم سنكون؟ . . وكيف سنمضى؟ . . وفى ظنى أن الغلبة ستكون للرأى الذى يوافق عليه نصف القاعدة + الارتفاع . .

سألنى : وهل سيظل ضلعا المثلث خاليين؟ . .

أجبته : هذا ما يجب أن نبحثه . .

تساءل : فى الاجتماع الأول؟ . .

أجبته : أجل . . فى الاجتماع الأول . .

لاحقنى : إذن، فالأمر يقتضى أن نضمن موافقة إمام وراوية أولاً على الانضمام ومن ثم نُعد جدول الأعمال . . أليس لقضية إمام التى قصصتها علىّ تأثير وهو يعد ملفه كرجلَ سيبحر فى بحر السياسة؟ . .

ـ لا أعتقد، فالرجل قد حصل على البراءة، وما زال فى عداد المواطنين الصالحين . . ولا يعتبر من أصحاب السوابق ـ بأى حال ـ . .

كان أحمد منصور يحاول تدريب نفسه على الخروج من شرنقة الركود . . كان قد ارتاح لتلك الخيوط الشفافة التى ظل يلفها حول نفسه حتى حجبت عنه المرئيات التى راح يرنو إليها من خلف خيوطه الحاجزة فتبدو له راسفة فى غلالة من القتامة والغموض . .

وكأنه كان ذلك الذى قال كلمته ولهث . . فقد راح يتابع أثر كتابه فى عالم الثقافة والمثقفين . . ثم راح يرنو بعين الفحص لمن يتحدثون عن كتابه ليجد أن أغلبهم قد قرءوا عن الكتاب، وأن أقلهم هم الذين قد قرءوا الكتاب نفسه ، ومن عجب أن يجد أن من

يتصدون لمعارضته هم الذين قد ألموا ببعض القشور وراحوا يلوكونها بالشرح والإفاضة فى إصرار يبدو فيه افتعال التعمق والإبحار . . عكس القلة الرزينة التى ألمت إلمامًا حقيقيًا بكتابه وجلسوا فى انتظار انتهاء ضجيج البراميل الخاوية؛ ليقولوا كلمتهم فى تؤدةٍ وجلال . .

لم يكن أحمد منصور يعلم أن إرهاقه سيمتد إلى ما بعد نشر مؤلفه الضخم . . ظن أنه سيقول كلمته ويرتاح . . ويركن إلى هدوء ما بعد انتهاء العاصفة . . ولكنه فى تنقّله من دعوة إلى دعوة أخرى فى مختلف المنتديات الأدبية أسلم نفسه لبريق الاهتمام . . اهتمام الآخرين به . . وبمشروعه . . وقد خدعه هذا البريق فى أول الأمر، وظن أن الانتشاء والانتشاء وحده هو الشىء الذى سيعود به قريرًا بعد كل ندوة ، وسرعان ما راح يستعد لما هو عكس ذلك، فالغضب أحيانًا كان هو رفيقه فى العودة . .

لم يشفع له إعلانه المسبق لقرائه أنهم سيلتقون برأى صادم أو قول مزعج أتى به لهم من أضابير التاريخ المنسى . . لم يتأملوا تحذيره المسبَّق بما يناسبه من تعبئة وتأمل، ولكنهم رغم ثقافتهم انحازوا إلى ما يعرفونه من دروس أمليت عليهم فى الصغر، وملئوا بها أنفسهم بعد الكبر . . ذلك الإملاء الذى يجنح له المرء باختيار ما يناسب قناعاته الراسخة منذ البدايات . .

وكان أكثر ما أجهده فى حوارات المنتديات والندوات هو تلك التسمية التى أطلقها باقتناع حول الفتح الإسلامى عندما أسماه الاحتلال الآسيوى . . ثم عندما راح يؤكد أن ما حدث من نضوب فى المدخرات والمحاصيل الزراعية وعدد السكان كان مرجعه إلى أن عمرو بن العاص لم يكن ذلك المستعمر المتحضر الذى من شأنه العمل على ازدهار الزراعة وهو القادم من صحراء لا تعرف الزراعة ، أو الحفاظ على مدخرات القبط وهو الذى استولى على أجزاء كثيرة منها وأرسلها إلى الجزيرة العربية . . لقد فعل ذلك مرتين كانت قناطير الذهب فى كل مرة هى الإرسالية الفخيمة التى تعبر الحدود . .

لقد ثار الشباب فى وجه أحمد منصور . . وهو يرنو إليهم بابتسامة مهدئة مردداً: «أرجو ألا يأخذكم الظن أننى سمحت لنفسى بتأليف هذه الوقائع . . كل ما حدث أننى أتيت لكم بها من كتب التاريخ . . التاريخ المنسى . .

لقد كان يلمح منذ البداية نُبل مشاعر من سيتلقى كتابه الصادم، وكيف ستدفعه تلك المشاعر إلى مهاجمة الكتاب وصاحبه. . فقد قال أحمد منصور لنفسه: إن كان أغلب هؤلاء الشباب قد وضع يده على تاريخه وتاريخ أجداده عبر قراءة عدة صفحات ـ لا عدة كتب ـ هى تلك الصفحات المنتقاه والمختصرة والموشاة بنعرة القومية والتحضر والتى راح يحفظها التلاميذ فى قاعات الدرس بشكل تقليدى. . وطالما رسخ هذا الأمر فى قلوبهم وفى نفوسهم رسوخ القرآن الكريم فإن خدش هذا الميراث لن يمثل سوى جريمة تندرج تحت جرائم خدش الثوابت وازدراء الشرف المصون. .

ولذا فقد عقد العزم على ما أسماه بالإصرار على المواجهة أو على المواجهة بإصرار. . فنحن أمة تكالبت عليها الأمم وشوهوا حضارتها، وإننا لم نعد نملك لهذه الحضارة سوى التباكى عليها فى لحظات الشعور بالفقد الأليم، أو الشدو بها فى لحظات التفاخر الذميم. . تفاخر باللسان يُغمض العين عَمَّا يعترى النفس من هوان. . فالواقع يقول إننا هُنّا كما هانت أحجار المعابد فوق الثرى. . وإن تفكك هذه الأحجار واندثار الكم الأكبر منها يشير إلى تفكك آخر اعترى فينا النفوس ووآد فينا الأمل. .

ويعود أحمد منصور فيقول لنفسه ثم لمن حوله من المخلصين: قيمة الصدمة هى أن تتذكر تاريخك المرير، ثم تعترف به، ثم تعمل على استعادة صفحاته الناصعة، تلك الصفحات التى لم يلوثها الاستعمار ولم يلطخها الدخلاء. . وقد لخص الرجل مشروعه فى عدة كلمات هى: استلهام روح القومية المصرية. .

ثم راح يفسر ما يراه من توجُّه كان يجب أن يكون هو التوجه القومى الذى كان يجب أن تتبناه كل الحكومات المتعاقبة منذ أول حكومة للثورة وهو: تأصيل روح القومية المصرية. . وأن ما فعله جمال عبد الناصر من إعلاء راية القومية العربية هو مشروع كان به من نبل الكرم ما يجعل هذا الكرم بلا معنى. . هذا لأنك أدرت وجهك لواجهتك، ورحت تزيّن واجهات الآخرين، وتثير الفخر بهم وبمشروعك الأكبر. . مشروع القومية العربية. . وكان أوْلى بك أن تزين واجهة القومية المصرية. . أولاً. .

كنا نفهم ما يصبو إليه أحمد منصور. . وكثيرًا ما احتدم النقاش فيما بيننا، ولكننا جميعا اتفقنا أن تأصيل مبادئ الأجداد العالية واستلهام روح حضارتهم الغاربة هو نوع

من البناء الذى لا يحتاج إلى هدم القواعد القديمة وإعادة بناء قواعد جديدة . . فبما أنك ستقيم بناء صرحك الجديد على نفس الأرض وفى نفس موقعك القديم، فمن الهراء والعبث أن تزيل قواعد الأجداد؛ لأنك بأى حال لن تستطيع أن تصنع مثلها . . ولكن كفاك ما تركه لك الأجداد من قواعد جديرة باستقبال ورسوخ كافة طوابقك الجديدة . . طوابقك العصرية . .

ليلتها قال له مفتاح الصاوى :

ـ كلامك هذا ذكّرنى يا ابن منصور بما يفعله الهولنديون بمدينتهم أمستردام . . فعندما زرت معرض فان جوخ . . رأيت أن واجهته الخارجية مُغرقة فى الكلاسيكية . . وأن توزيعه الداخلى مُغرق فى العصرية . . واكتشفت أن هؤلاء الناس يحافظون على الحوائط الخارجية لمبانيهم القديمة ولا يهدمونها إذا شرعوا فى عمل بناء جديد . . فهم يعمدون فقط إلى إزالة الحوائط الداخلية ووضع تصميم حديث للمبنى تكون واجهته الخارجية هى نفس واجهة المبنى الذى أزالوا جدرانه من الداخل . . ومن هنا فقد قلت لمن حولى : لو صحا مواطن هولندى من ميتته التى مضى عليها أربعة قرون وتجول فى مدينته لاكتشف أنها هى نفس المدينة التى مات وتركها على هذا الحال . .

التقط منه أحمد منصور خيط الحديث وأضاف : هذا لأنهم لا يملكون من عبق الأجداد سوى تلك الحوائط الصمّاء، ولكنى أتحدث عن البناء الفكرى والعقائدى الذى يكمن فى المعابد، والذى يمكنك أن تراه كقيمة منظورة خلف هذه المعابد . . فأنا لا تهمنى المعابد كبناء . . بعد أن تحولت حجارتها إلى أطلال تحكى كيف هانت هى علينا، وكيف هُنّا نحن على الناس، ولكن يهمنى المعنى الفكرى الكامن خلف بناء هذه المعابد . .

سأله مفتاح الصاوى :

ـ ألا يجب أن نكون من أنصار الواقع، ونسمى الأشياء بمسمياتها، ولا نتأثر بالموضوعات الإنشائية التى يزعجنا بها بعض الكتّاب من آن لآخر بموضوع استلهام المعنى الفكرى الكامن خلف تاريخنا الحضارى الذى يمتد إلى سبعة آلاف سنة؟ . . فسّر لى بربك . . كيف يتم هذا الاستلهام؟ . . أم هو كلام مرصوص منمق لا يقبل التطبيق . . وكفى؟ . .

قال له أحمد منصور :

ـ رغم علمى أن التاريخ لا يعطى نموذجين متشابهين . . وأنه من العبث بل ومن الصعب تقليد اليابان إلا أن أقل ما يمكن اقتفاء أثرهم فيه هو إصرارهم على إنجاز نهضتهم الحديثة مع الحفاظ على ثقافتهم الداخلية . . لقد أنجزوا الحداثة وحافظوا على الهوية الخاصة . . فأنا لا أدعو إلى الانكفاء على النفس والاعتماد على العوامل الداخلية وأنا أنشد النهضة ، ولكنى أرى أن العامل الخارجى هو الذى سيساعدنى على تحقيق هذه النهضة إن لم يكن معاكسًا لمنظومة القيم التاريخية التى أعتز بها . . فيجب ألا ننسى أن الغرب ـ خاصة أمريكا ـ كعامل خارجى هو الذى دعم نهضة اليابان . .

هتف مفتاح الصاوى :

ـ أمريكاااا؟ . . ها نحن قد ذهبنا بأقدامنا إلى مربط الفرس . .

لاحقه أحمد منصور :

ـ لا يكفى أن تذهب بأقدامك إلى هذا الفرس لتملأ عينيك بمنظره الخلاب . . يجب أن تمتطيه . .

قلت له :

ـ إذا امتطيته فهذا أيضًا لا يكفى . . إذ يجب أن أحركه نحو وجهتى . .

قال أحمد منصور :

ـ لن تستطيع . . فهو فرس يعرف وجهته وينشدها ، ولا مانع لديه أن يأخذك إليها طالما أنت فى صحبته . .

علق مفتاح الصاوى ضاحكًا :

ـ إذن ، فالراكب هنا مركوب؟ . .

حملق فيه أحمد منصور ذاهلاً :

ـ تلك هى أمريكا فعلاً . . الراكب فى صحبتها . . مركوب . . أنت لا تقول نكتة . . أنت تلخص استراتيجية حكّام الكون . . وأباطرة كوكب الأرض الحاليين . .

سأله مفتاح الصاوى : ماذا تعنى؟ . .

أوضح لنا أحمد منصور :

ـ أعنى أننا بحاجة إلى استخدام تلك السياسة . . سياسة الراكب المركوب . . لا بد أن نضع فى اعتبارنا مداعبة أمريكا باستخدام معطياتها التى تتشدق بها بعد نجاحها فى أفغانستان . . واقتحامها للعراق . . إنها ترتب ـ أو تعيد ترتيب ـ تلك البيوت التى خرّبها حكامها . . وهى فى طريقها إلى ترتيب باقى البيوت . . كل البيوت الخاوية على عروشها والتى لا يطل على العالم الخارجى منها سوى واجهات زائفة . . أمريكا لمحت ما تحويه تلك البيوت من الداخل . . ظلام . . وفقر . . وظلم . . والخفافيش تملأ الأركان . . الخفافيش تنطلق رغم الحراسة المشددة على المداخل . . تطير إلى الخلاء لتمتص بعض الدماء . . والحراس يعتذرون . . لم يعد هناك سبيل إلى الاعتذار . . الحل هو : إزالة الحراسة المقيتة . . وتحطيم الواجهات الزائفة . . وإزاحة الظلام بإطلاق النور . . النور يعشى عيون الخفافيش . . الخفافيش إن لم تنسحب ستموت . . وهنا تستطيع أن تقيم الحوائط الجديدة على أساساتك وقواعدك الأصيلة . . تستطيع إزاحة الفقر والظلم من على قاعدتَى التنمية والعدالة . .

هتف مفتاح الصاوى ساخرًا :

ـ إذن، فأنت ترى أن أمريكا ستقيم لك هذا المشروع النبيل؟ . . تخليصك من الفقر والظلم؟!! . .

أكد له أحمد منصور :

ـ لن تصل إلى هذا الإصلاح إلا بمساعدة أمريكا وامتطاء مشروعها المعلن . . بث الديمقراطية فى بلدان العالم الثالث . . و . .

هز مفتاح الصاوى رأسه عدة مرات حتى لا يكمل أحمد منصور :

ـ أجل . . أجل . . هى ستفعل كل ذلك وأكثر . . مقابل ماذا؟ . . يعنى ما هو الثمن

الذى ستناله أمريكا مقابل ذلك؟ . .

قال أحمد منصور مستسلمًا :

– فلتأخذ أى ثمن؟ . . ما هى المشكلة؟ . . من فى هذا العصر يُعطى . . ولا يأخذ؟ . . ألا يجب أن نكون واقعيين؟ . .

قلت له : إذن، فأنت تريد أن تصل بصحبة أمريكا إلى ما أراد عبد الناصر الوصول إليه بدون أمريكا . .

ردد أحمد منصور :

ـ أجل . . أجل . . لقد أبعدهم عبد الناصر حتى يُكمل مشروعه القومى . . فلم يبتعدوا وحطموا بنايته القومية قبل أن يعلو بأساساتها . . فعلوا ذلك . . مع سبق الإصرار . .

ثم توقف قليلاً عن الحديث وراح يوضح رأيه الأخير فى هدوء :

«عبد الناصر تعامل فى مشروعه بنبل وقوة الثوّار الشرفاء . . عبد الناصر ظل متمسكًا بقوته حتى بعد الهزيمة . . هل تعلم أنهم ساقوا عليه طوب الأرض فى مباحثات سرية ليعيدوا إليه كل سيناء مقابل صلح منفرد معهم . . وأنه قد رفض هذا العرض بشدة . . العرض الذى تبنته أمريكا بطلب من إسرائيل . . (وصمت أحمد منصور قليلاً ثم واصل . .) . . لقد تذكرت بيتا من الشعر للشاعر محمد الشهاوى يقول :

«قد كان يمكن للمتنبى الفرار

لكنه قد أبى . . » .

فلم يكن للمتنبى أن يتخلص من مبادئه وقيمه وعمق رسالته التى ظل يهديها للبشر فى سبيل أن ينجو بحياته فى لحظة جبن كان يمكن أن يفر فيها أمام قاطع طريق . . ولكنه تذكر وتمسك بما حفظه الناس عنه من أنه الشاعر الهمام الذى يعرفه الليل والخيل والصحراء . . ولم يكن بالتالى لعبد الناصر أن يسحق مشروعه القومى تحت حذاء الجُبن وطلب الخلاص، ويصافح الأعداء على مرأى من الأصدقاء الدامعين قهرًا وخيبة أمل . . أليس هذا هو نُبل الثوار الشرفاء؟ . . الثائر الذى لا يفصل بين ما يقوله وبين ما

يفعله . . الشريف الذى يحب أن يسبق فعله قوله . . لقد دفع عبد الناصر ثمن شرف موقفه . . فمات مقهوراً بيد أعدائه . . ودفع السادات ثمن تعجُّله وحسن نيته فمات مقتولاً بيد أبنائه . . فتجربة عبد الناصر لم تعد قابلة للتكرار وهو الوقوف عند الطرف البعيد جدّا من أمريكا . . وفكرة السادات يجب ألا تتكرر وهى الارتماء بشغف فى حضن أمريكا . . انهض أولاً بمشروعك المصرى . . أوجد حلاّ لوحش الجوع الذى يظهر . . وطائر العدالة الذى يغيب، وهنا ستبرز للعالم شخصية قرءوا عنها كثيراً . . وغابت عنهم طويلاً . . شخصية المصرى . . الفرعونى . . القبطى . . الذى أشبع العالم فى سالف الأزمان . . ولم يعان الجوع . . ولم يسحقه القهر . . فتمتعت روحه بالحرية وتشبعت دواخله بالانطلاق، فقبض على ناصية الإبداع حتى صار : البنّاء . . المثّال . . الفلكى . . الكيميائى . . الفنان . . الزارع . . الحاصد . . الطبيب . . المكتشف . . السائح فى أقطار الأرض . . الفصيح . . العابد . . الروحانى المقدس . . الرقيق المتحضر . . المخترع . . وتلك هى إمكانياتنا الحقيقية التى تتسرب من بين أصابعنا كالرمال . . ولم نجد ـ حتى الآن ـ من يعلمنا كيف نقبض عليها ونعيد صياغتها على ضوء العصر ومعطياته فندخل فى صندوق المنتجين لا المستهلكين . . وأن نوضع فى قائمة البشر الذين يجيدون البذل والعطاء . . لا الذين يعيشون على المنَح والاستجداء . . وأن تعود إلينا كرامتنا بعد طول غياب . . وأن تفكر أمريكا وغير أمريكا فى شد الرحال إلى بلدك . . وأن تدق أبوابك أكف القوم النابهين يطلبون منك التواصل ويعرضون عليك المشاركة وشرف دفع ورفع منظومتك . . » .

وكأنما أزاح ثقلاً كان جاثما فوق صدره . . عمد إلى سيجارة فأشعلها، وقد سرح ببصره بعيداً . . فانبرى مفتاح الصاوى ودفع إليه بسؤال فيه من الحرج والمشاغبة أكثر مما فيه من طلب المعرفة . .

ـ أراك عرجت على عبد الناصر فقلت عنه ما قلت، وكذلك السادات . . لماذا تتحاشى ذكر حسنى مبارك؟ . . هل أنت من هؤلاء الذين يمسكون فراملهم عند ذلك الخط الأحمر . . خط الخطر؟ . .

بادر أحمد منصور فواجه مفتاح الصاوى بشجاعة . .

ـ لا . . أحمر مين وأخضر مين؟ . . يا سيدى حسنى مبارك استلم ميداليا الحُكم . . وبها بعض المفاتيح التى لا تصلح لفتح بعض الأبواب . . وهذا ليس سرّا إذا حللت المقولة الشهيرة لأنور السادات من أنه وعبد الناصر آخر الحكام الفراعنة . . وأن من سيتولون الحكم بعدهما ـ أو بعده بالتحديد ـ سيكونون مجرد موظفين . . ويجب أن تلمح هنا عمق الإشارة إلى معاهدة كامب ديفيد، تلك المعاهدة التى قيدت مصر وشلّت حركتها الوطنية . . فليس لك أن تنقض هذه المعاهدة التى تحميها أمريكا . . وليس لك أن تشاغب إسرائيل على المستوى السياسى . . ما بالك بأى مشاغبة عسكرية . . من المؤكد أن أى تفكير أو تحرك من هذا النوع سيعود بك إلى نقطة الصفر إن لم يكن إلى ما هو تحت الصفر بمراحل، خاصة بعد وضوح تلك المشاركة الحميمة بين أمريكا وإسرائيل على المستوى العام، وها هى تفتح لها الأبواب بابًا بعد باب دون عقد مكتوب . . أرهقت العراق وحجّمت ليبيا . . وأرعبت سوريا . . وتحاول أن تأتى لها بإيران فوق طبق من فضة . . كل هذا لأنه لم يعد يشغلهم الباب الذى أغلقوه منذ ربع قرن مضى . . باب مصر . .

ـ إذن، فأنت تلتمس له العذر!! . .

أجاب فورًا :

ـ بل وألتمسه لنا جميعًا . . فكلنا يتميز غيظًا . . كلنا لا نملك إلا ذرف الدموع على فلسطين والعراق . . ويتملكنا الخوف على سوريا وإيران . . ولا نملك إلا الجلوس أمام شاشات الفضائيات نرقب ـ ولا نراقب ـ المهازل التى تحدث . . ونسد آذاننا لبعض الهتافات التى تنادينا فى مظاهرات الغضب : أين أنت يا مصر؟ . .

قال له مفتاح :

ـ نسدها خجلاً بالطبع . . لا جُبنًا أو تخليًا . .

ـ لعله بالنسبة لك هو الخجل أو قلة الحيلة . . ولكنه بالنسبة لهم هو الجُبن والتخلى . .

قلت للصاوى أن يضع أمام أحمد منصور تصوره لإحياء فكرة حزبه المأمول . . كان

صوتى متهدجًا . . وغصة فى قلبى تتحرك ربما لاكتشافى الآن أننا بصدد بدء السير فى طريق طويل لا نهاية له . . طريق لعل ما به من مصابيح خافتة متباعدة على أحد جانبيه لا تكفى للرؤية . . أما الجانب المظلم فيه فأخشى ما نخشاه أن يكون ظلامه حجب عنا تلك الأدغال الكثيفة التى تمرح فيها الوحوش الكاسرة والحيوانات المفترسة . . وقلت لنفسى كيف لنا أن نجلس بهدوء وثقة لنسطر لشعب مصر برنامجًا وطنيًا ننتشله فيه من الفقر والخوف والهوان لنسمو به بين الشعوب؟ . . كيف لنا أن نفعل ذلك، وليست لدينا إجابة واضحة ومحددة لسؤال يجب أن تعرف إجابته؟ . .

ـ كيف ستتخلصون من ذلك المولود اللقيط . . كامب ديفيد؟ . . هل نملك القدرة على إثبات أنه أتى سفاحًا ولا يتمتع بشرعية الإنجاب؟ . وهل لدينا الجسارة لمواجهة من سيعيبون علينا التنكر لذلك الابن الضال؟ . . الحقيقة أنه : لا التخلص فى مقدرتنا . . ولا الإثبات فى حوزتنا . . ولا الجسارة ضمن ما نمتلكه . . والتنكر سيكون هو السبب المباشر لضربنا فى مقتل . .

كان الصاوى آخذًا فى تقديم مشورته وأفكاره لأحمد منصور . . حين اكتشف أننى بعيد عنهما بهواجسى . . فلكزنى خفيفًا وهو يهتف :

ـ أين أنت؟ . .

لم أجبه عن سؤاله . . وإنما وجهت إليه سؤالاً :

ـ هل يمكنك أن تذكرنى بشعار الحزب المرسوم؟ . .

ـ الحصان الجامح . .

ـ وشعاره المكتوب . .

ـ إن قلت كلمتك لا تمض . .

ـ واسم الحزب . .

ـ حزب مصر . . الأم . .

ـ هل هو اسم مؤقت؟ . .

تبادل النظرات مع أحمد منصور :

ـ الإجابة عند ابن منصور . .

تنحنح أحمد منصور ثم قال :

ـ من ناحيتى فهو الاسم المطلوب . . ولا أدرى إن كان لكما رأى آخر حتى نخرج للناس بالاسم النهائى . . ولكنى سعيد بما اتفقتما عليه من شعار سيكتب تحت الحصان الجامح . . إن قلت كلمتك لا تمض . .

ثم هز رأسه وهو يفكر بعمق :

ـ فعلاً . . لا يكفى أن تقول كلمتك . . انتظر حتى يسمعها الناس . . وانتظر لتحميها من أعدائها . . وانتظر لتغذى مفعولها عند من يأخذ بها . . وانتظر حتى تنعم بسحر مفعولها عند من نعموا بها . .

فأزاده مفتاح الصاوى فقرة جديدة :

ـ وانتظر حتى تدفع ثمنها فى المعتقل إن كانت لا تروق للحكام . .

هز أحمد منصور رأسه موافقا . .

ـ سأنتظر . .

ـ إذن . . يجب أن يكون لدينا شعار بديل : « قل كلمتك ، وامض إلى السجن » . .

قالها مفتاح الصاوى وهو يطلق ضحكة عالية من كل أعماقه . . وأحمد منصور يراقبه بابتسامة خافتة . . وفكر شارد . .

* * *

(٩)

الراقصون الجياع على سلم الحيرة

كان مفتاح الصاوى يجلس فى الصفوف الأولى وهو يتميز غيظًا مما يسمعه فى خطبة الجمعة . . فرغم حبه لهذا الإمام الخطيب واقترابه منه على المستوى الشخصى، وتأكده أن هذا الشاب النابه لا يمكن أن يحصيه المرء ضمن من يحصيهم من أئمة يسيرون بجانب الحائط ولا يعتلون منابرهم إلا بأوراق كالمنشورات تأتى لهم من الوزارة، أو هؤلاء الذين يلتزمون التزامًا حرفيًا بتعليمات رؤسائهم من نبذ الحديث فى السياسة والالتزام بتيار الحكومة والسباحة فى اتجاهه . إلا أن ما يسمعه اليوم من هذا الشاب لا يمكن وصفه سوى بالاجتهاد المخجل . . فهو يطالب الحكومات العربية فى الدول البترولية بالتدخل لحل أزمة مصر الاقتصادية ومعها اليمن والسودان بتوزيع زكاة المال على هذه الدول لإنقاذها من الجوع وراح يحسب المليارات التى ستنعم بها هذه الدول الفقيرة فيما لو حصلت على . . (اثنين ونصف بالمائة) من دخول السعودية والكويت وقطر وكل دول الخليج . . » .

ـ «فمن كل أربعين ملياراً يا سادة لنا مليار . . وهل تعلمون مقدار ما نعمت به هذه الدول من دخول طوال الحقبة البترولية التى انتعشت بعد حرب أكتوبر؟ الحرب التى بسببها سبحت هذه الدول فى بحور العز والسعادة . . بحور تخضبت بدماء المصريين؟ . .

لقد حصد أثرياء العرب ـ هكذا قال الإمام ـ ما يزيد على اثنى عشر تريليونًا من الدولارات . . والتريليون يا سادة يكتب هكذا ـ وأشار بيده ـ واحدًا وأمامه اثنا عشر

صفرا . . أى اثنا عشر ألف مليار دولار . . بواقع ٤٠٠ مليار دولار فى العام الواحد . . أنعم الله بها عليهم بخير تدفق من تحت أقدامهم طوال ثلاثين عامًا مضت . . فتأملوا معى فيما لو حرصت هذه الدول الثرية على ما يحرص عليه الأثرياء الأسوياء ودفعوا زكاة المال للفقراء الذين يحيطونهم . . اليمن فقير . . والسودان فقير . . ومصر أصبحت دولة فقيرة . . وتلك هى دول الجوار لتلك البلاد الثرية ، وأقل ما يجب أن يتحلى به الجار الثرى هو أن يُطعم جاره الفقير . . هكذا أوصى الرسول . . تأملوا معى ما كان يمكن أن نحيا فيه لو كنا حصلنا على نصيبنا من عشرة مليارات سنويًا . . كان من الممكن لمصر أن تحصل على أكثر من نصفها بحكم عدد السكان . . ستة مليارات على الأقل فى العام الواحد . . أقول هذا . . وأذكركم بالثمن الذى حصل عليه السادات من أمريكا مقابل عمل صلح منفرد مع إسرائيل (مليارى دولار فى العام) . . ما أبخس هذا الثمن الذى أخرجنا من الصف العربى وجعل العرب أنفسهم يزيحون عن قاماتنا ثوب الشرف والبطولة ، ويتعاملون معنا المعاملة التى تليق بشخص قبل على نفسه تجرع كأس الهوان والتبعية . . وإن كان العنوان الذى واجههم به نظام السادات هو أن مصر للمصريين ، وأننا يجب أن ننفض أيدينا من الحروب ونتفرغ للتنمية . . وإن كان ما حدث أننا لا كسبنا بطولة المحارب الصامد . . ولا نجحنا فى التنمية ، وصرنا كالراقص على السلم . . صرنا الراقصين الجياع . . لا يعلم العالم بما نحن فيه . . رقصنا باهت . . وبطوننا خاوية . . فمدوا لنا أيديكم يا إخوة العرب . . فنحن فى النهاية الأخ الأكبر الذى جار عليه الزمن وأنهكته الحياة . . » .

كان مفتاح الصاوى يباغته بين لحظة وأخرى بنظرة ملؤها الغيظ مما يقول والرجاء فى أن ينتهى من هذا الكلام . . والشاب الفصيح الثائر لا يلحظ نظرات مفتاح الفنان الذى يأنس إليه فى مرسمه من آن لآخر صارفًا لديه بعض الوقت الملىء بالمشاغبة . . فالإمام الشاب تعجبه بعض اللوحات ولا تعجبه كل اللوحات . . والجانب الذى لا يعجبه هو تلك اللوحات التى تفصح عن جسم المرأة وتكاد تنبئ عن عورتها . . ولا يعجبه ما يقوله مفتاح عن أن الجمال الإلهى الكامن فى القوام البديع خواء هو نفس الجمال الذى يشدك للوردة الناضجة ، ووجه الطفل البرىء وانسيابية قفزة الحصان الرائعة ، وجلال نهر النيل عندما تنسكب فيه دموع الشمس الغاربة . . وكلها إبداعات إلهية تجعلك

تهتف من كل قلبك: الله.. وهذا الهتاف الفطرى العفوى المشدود بقوة الحب والوله هو عمق التعبد والتهجد فى قدرة الخالق.. إن الإمام الشاب يقف حائراً أمام ما يقوله الفنان «مفتاح» الرجل الملىء بالفكاهة والحب والكرم ويقول له: أنتم تفلسفون الأمور أيها الفنانون.. الحلال بيّن.. والحرام بيّن.. وبينهما أمور مشتبهات، فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك.. يمكنك أن تلقى نفس الاستحسان إذا رسمت لى امرأة محجبة لا يظهر منها سوى العينين.. ألا يمكنك أن تحصل على كل معانى السحر فى تركيزك على رسم هذه العيون؟.. ثم يؤكد له الإمام الشاب أن الإثارة التى تنشدها تكمن فى إخفاء ما يثير..

ويطول الجدل بينهما ولا يلتفت الإمام الشاب إلى ما يرويه مفتاح من أن الرسول (عليه السلام) لم يستنكف الفرجة من شباك بيته على مغنية زنجية وهو يقف خلف عائشة.. ولو كان قد أشاح بوجهه الكريم وأغلق الشباك لأغلق على أمته لحظات الترويح عن النفس.. ثم يعود مفتاح لمقارعة إمامه الشاب بحديث شريف يقول: «روّحوا عن قلوبكم ساعة بعد ساعة فإن القلوب إذا كلّت.. ماتت».. والفن يا مولانا نوع من الترويح عن النفس.. وما دام هناك فن.. فهناك فنان.. وشخصية الفنان أبعد ما تكون عن شخصية الموظف الذى يتلقى الأوامر فى عمل ما من رئيس ما.. الأوامر لدى الفنان هى الإيحاء.. والابتكار.. ومطاردة المجهول.. والرئيس عند الفنان هو فكرُه.. سيان كان هذا الفكر فكراً يقظًا أم فكراً غافيًا.. إنه الفكر الذى يلهمه به الخالق..

وينبرى الإمام الشاب صائحًا: لا.. إنه شيطان الفن.. ألا تسمع من يقول فلان ركبه شيطان الشعر؟.. فيتصدى له مفتاح موضحًا كيف سرى هذا المفهوم الخاطئ بين الناس منذ أن ظن بعض العرب أن سحر الشعر أتى للشعراء من «وادى عبقر» الذى تسكنه الشياطين كما كانوا يظنون.. وأن العبقرى هو ذلك الساحر الذى أتى بما لا يأتى به سائر البشر من الوادى الشيطانى..

انتهى الإمام الشاب من خطبته.. وهبط المنبر.. وأمّ المصلين.. وأنهى صلاته.. وهناك ما يختمر فى عقل مفتاح الصاوى من نية فى إعلان رفضه القاطع لما قاله صديقه الإمام من توصية واقتراح يحمل شكل الاستجداء باسم فقراء مصر..

وفى لحظة مُباغتة وعند انتهاء ختام الصلاة قفز مفتاح الصاوى إلى الميكروفون مستأذنًا فى كلمة قصيرة . .

ـ «لن أتحمل الذهاب بها إلى بيتى . . فقد تقتلنى . . ولن أتحمل كتمانها فقد تذبحنى . . فأنا أفهم أن يذهب رئيس وزرائنا أو يذهب رئيس جمهوريتنا نفسه إلى أحد أصدقائه الملوك أو الأمراء ليطلب همسًا بعض المعونة لميزانية هذا العام . . وإن حدث ذلك ـ إن حدث ـ فهو إجراء دولى تتعامل به الدول كما يتعامل الأفراد، ويأتى فى شكل اتفاقيات تعلن بعد ذلك بما لا يحمل سر الصدقة التى يجب ألا تراها يسارك عندما تقدمها يمينك . . وكم شاهدنا اتفاقيات توقّع أمامنا على شاشات التليفزيون لقروض ميسّرة أو منح لا ترد . . أما أن يصل بنا الحال أن نستجدى طعامنا من فوق المنابر فهذا هو الهوان الذى لم يطلبه فقراء مصر لأنفسهم . . والذى يرفضه الفقير مثلنا فى اليمن أو الجائع مثلنا فى السودان . . كنت أفهم أن يكون لدى إمامنا الفصيح ذى القلب الثائر والوطنية الجارفة ما هو أليق من هذا الاقتراح أو المطلب المهين كأن يتساءل : لماذا لا تتعاون العقول المصرية والسواعد اليمنية ورءوس الأموال الخليجية فى زراعة ملايين الأفدنة فى السودان؟ . . وأنا أرى أنه مادام قد نجح فى جمع أرقام الدخول النفطية طوال ثلاثين عامًا فقد ينجح فى إثبات أن زراعة أراضى السودان المستوية لن تكلف الكثير، ولكنها ستأتى لنا بما هو أكثر . . سنسد جوعنا . . ونصدّر الفائض عن حاجتنا للعالم . . وسنمنع سيطرة الفلاح الأمريكى على رغيف خبز الفلاح المصرى واليمنى والسودانى . .

الخواجات يا سادة توصلوا إلى رأى قاطع لمثل هذا الأمر . . علاقة الجار الثرى . . بالجار الفقير . . وتوّجوا رأيهم فى ذلك بحكمة تقول :

«لا تعطه سمكة . . علمه كيف يصطاد . . » .

فلعلكم تلحظون أن فى قصة مريم القرآنية خير مثال لذلك . . مثال تمجيد العمل، وليس انتظار الخير يمطره لك الله دون عناء منك . .

﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [مريم : ٢٥] .

فكيف لسيدة تعانى المخاض بكل آلامه أن تحصل على الرطب الجنى بمجرد هزة من

يدها الواهنة لجذع نخلة؟ . . لكنها اليد التى تعمل وفوقها يد الله التى ترزق صاحب النية فى العمل . . كان يمكن لإمامنا النابه أن يلتفت إلى سر ما حدث لمصر . . وأن يعرج بنا بفكره السديد إلى المربع رقم واحد فى مسلسل تركيع مصر . . مسلسل التركيع الذى يبدأ بفكرة التجويع . . لماذا ترك العرب مصر تحارب إسرائيل بأموالها وأبنائها طوال ربع قرن منذ عام ٤٨ وحتى عام ٧٣؟ . . لأنهم خافوا أن يحكمهم الفراعنة فيما لو تخلصوا من إسرائيل ودانت لهم المنطقة . . خاصة وقد ظهرت شخصية جمال عبد الناصر التى ألهبت أكف الشعوب وألهبت نار الغيظ والخوف فى القلوب . . قلوب الحكّام . . حاولوا أن يقتلونا فى اليمن ونحن ندافع عن شعب فقير مظلوم خاضع . . وأفسدوا وحدتنا مع سوريا كأول بادرة لفكرة القوة والوحدة . . وسهّلوا لإسرائيل طريق القضاء على مصر عبد الناصر فى ٦٧ . . ألا يتنافى ذلك مع ما فعلوه وقدّموه لصدام حسين ليصد عنهم غزوًا فارسيًا محتملاً جاءهم فى شكل دعوة إسلامية بازغة تنتهى إلى ما تحمله فكرة القومية عند عبد الناصر ولكن فى ثوب جديد؟ ثوب إسلامى . . كم دفعوا لصدّام حتى يورّطوه فى وقف التيار الفارسى؟ . . ولماذا لم يدفعوا لعبد الناصر حتى يساعدوه فى وقف العاصفة الصهيونية؟ . . كيف نطلب منهم الزكاة والتصدق علينا ونحن نعلم أن أموالهم يوظفها الأعداء بأنفسهم ولأنفسهم . . كيف نطلب منهم أن يقوّوا شوكة مصر؟ . . والمطلوب هو كسر شوكتها؟ . . لقد خضع لهم السادات بعد ثورة الجياع عام ٧٧ . . الثورة التى كادت أن تقتلعه، والتى ذهب بعدها إلى أعدائه فى عقر دارهم مرتديًا ثوب القوة الزائفة مغلفة بديكور الكاميرا الأمريكية . . هذا هو التركيع بعد التجويع الذى أقصده، والذى أؤكد لكم فيه أن مصر لن تعلو إلا بمصر . . وأن خروجنا من الصف العربى كان هو النتيجة الحتمية لحرص كثير من العرب على إزاحتنا من مقدمة هذا الصف . . ألا تعلمون أن الملك الحسن الثانى كان يبعث للموساد الإسرائيلى عبر أجهزة التنصت بكل ما يدور فى مؤتمرات القمة العربية والإسلامية التى تعقد فى عاصمة مملكته؟ . . ألا تعلمون أنه كان يثبت الميكروفونات الناقلة لهمسات الملوك والرؤساء فى نفس اللحظة؟ . . كان يفعل ذلك وهو يستقبل عبد الناصر المخدوع بالأحضان ويودعه بالأحضان . . ألا تعلمون أن الخط كان مفتوحًا بين جولدا مائير والملك حسين ينبئها فيه بكل ما يفكر فيه عبد الناصر فى

حرب ٦٧؟ . . ألا تعلمون أنه كان حريصًا على إبلاغ اليهود بما يعرفه عن حشود مصر وسوريا ضد إسرائيل عام ٦٧؟ . . ألا تعلمون أنه كان حريصًا على إبلاغ اليهود بما يعرفه عن حشود مصر وسوريا ضد إسرائيل عام ٧٣؟ . .

هذا هو قدر مصر . . لم يقبلوها إمامًا فى أول الصف . . وتركوها تلعق جراح الإرهاق والفقر وهى فى آخر الصف . . إن مصر تعيش بعيدًا عن دورها . . رغمًا عنها . . وها هم يكتشفون أن الدائرة تنقلب عليهم وتدور بهم وهم يرون أن الاستجداء الذليل لأرض فلسطين لم يُجد نفعًا . . وأن إلغاء السلاح من أيدينا تحول إلى مخالب جديدة فى أيديهم . . وها نحن نكتشف أن عبد الناصر أنعم الله عليه برحيل هادئ قبل أن تستفحل وحشية أعدائه . . وإلا كان قد تورط فيما تورط فيه صدام حسين من ذلٍّ وهوان وفرار فى حفرة العنكبوت مختفيًا من تلك الوحشية المستفحلة . . وما هو الذنب الذى جناه صدّام على نفسه حتى يكبّل بالحديد؟ . . ذنبه أنه لم يعترف بإسرائيل ولم يركع لأمريكا . . أما ما جناه على شعبه فقد كان هو مدخلهم إليه . . وما جناه على جيرانه كان هو التصريح المعلن لاجتياح أراضيه . . وما هم فى الأصل مهمومون بعذاب الشعب ولا بألم الجيران . . ولكن همهم إخضاع الطرفين ضمن جميع الأطراف، والتربع على عروش بترولهم، وإطلاق يد إسرائيل فى المنطقة . . تحت مسمى الشرق أوسطية . .

أعود فأقول: إن مصر لم تمت . . ولن تموت . . وإن الجوع فى مصر ليس كالجوع فى أى مكان آخر . . فمصر لا يمكن أن تجوع إلا إذا جاع العالم كله . . ولا يمكن أن تزدهر الحياة عندهم ثم تذبل عندنا . . إذن، فنحن نمر بحالة من الصداع الذى يوجع الرأس وإن رءوسنا لم تنفجر بعد . . ولن تنفجر . . نحن نتخبط لأننا ما زلنا نبحث عن مشروعنا الحقيقى . . المشروع الذى يستوعب كل عقولنا وسواعدنا وأرواحنا . . المشروع الذى يجب أن نعثر به ونعثر فيه على حقيقة أمرنا . . وكيف كنا وماذا يجب أن نكون . . المشروع الذى يقول إن مصر لم تتعود أن تمد يدها للاستجداء، ولكنها تمد يدها بالعون والمؤازرة . . مصر التى تعودت أن تكون هى الأم الرءوم . . وليس الابن الضال . .

ومن هنا أعلن لكم أن حزب «مصر الأم» هو الحزب الذى نعمل على إعلانه مع

نخبة من الوطنيين الشرفاء، والذى نعكف على استكمال قاعدته التأسيسية بفكر وضمير أبناء هذا الوطن مستمدين الغرض منه وفكرته وبيانه من أفكار النابهين الغيورين الذين أرسل لهم نداء عبر هذا اللقاء المحظوظ ليبادروا بالاتصال بنا.. بمكتب الأستاذ أحمد منصور ابن بلدكم المحامى الذى يعيش بهَمّ هذا الوطن ـ مصر الأم ـ منذ شبابه.. مضحيًا بكل ما يملك فى سبيل إثبات أن البداية الحقة هى التى تأتى من استلهام روح مصر الفرعونية.. مصر القومية.. مصر التى لا تعلو بالعرب ولن يعليها العرب.. ولكنها عندما تعلو بنفسها أولاً.. ستعلى شأن العرب.. ثانيًا..».

وبكل ثبات وهدوء وقوة أنهى مفتاح الصاوى كلمته التى أخذت من الحضور آذانهم وقلوبهم وكل خواطرهم الوطنية التى كانت راكدة فصحت.. وكانت غافية فاستيقظت.. ظهر ذلك فى حالة الانبهار التى سادت حوله فهرول المصلون نحوه عناقًا ومصافحة واستحسانًا حتى لقد شاهدوا الإمام نفسه ينخرط بينهم محاولاً الوصول إلى صديقه الفنان الذى فاجأه بهذه الخطبة العصماء ردًا على خطبته التى طاش تأثيرها وتبدد وانزوى مفعولها خجلاً وفتورًا.. كانوا يسألونه عن عنوان مكتب الأستاذ أحمد منصور.. وكان يجيبهم بابتسامة دمثة وهو يسير الهوينى بين صفين من المصلين الوقوف متأهبين للخروج معه.. واكتملت الحلقات خارج المسجد من أناس أدهشهم أن يسمعوا هذا الهجوم المؤدب على الحكام العرب.. والهوان الذى ظل يجمعنا معهم فى بوتقة من صنع أمريكا وإسرائيل..

* * *